

**سيِّد الرجال**

مسرحية من ثلاث فصول

"سيد الرجال" مسرحية من ثلاثة فصول، تدور كل أحداثها خلال ساعات قليلة في منزل آل سلمان.

**الشخصِيات:**

**أمير:** شابٌّ ثريٌّ ورجل أعمال ناجح في عقده الثالث أو يَزيد بقليل، طويل القد، رائع الهندام والأخلاق، متحصِّل على شهادة الماستر في إدارة الأعمال، يُدير معمل "آربيكلوذ" لإنتاج الألبسة الصوفية، متزوِّج ومُستقِرٌّ.

**السيدة ليلى:** زوجة أمير، شابَّة حسناء، وشريفة تَصغُره بسنتَين، مُخلِصة ووفيَّة لزوجِها، عاشت قبل زواجها في عائلة فقيرة.

**الأمين علي**: رجل في الخامسة والخمسين مِن عمرِه، عظيم الهيبة، متزوِّج وله ثلاثة أولاد، لا يظهر عليه إلا الجد والعزم، هو مُوَكَّل وأمين السيد أمير في أعماله، وكان المدير السابق للمعمل، وهو مَن تكلَّف رعاية أمير قبْل الحادث.

**خالد سلمان:** كهلٌ يكبر عم علي بسنتين أو ثلاث، رجل أعمال متزوِّج ومقيم بفرنسا منذ أكثر من عشرين سنة له بنتٌ تُدعى: ماريا، وولد يُدعى: كارل، له شارب مقوَّس عِند الطرَفين، ومُمتلئ قليلاً.

**السيِّدة خديجة:** زوجة خالد سلمان، امرأة حكيمة وهادِئة، كانت تقيم بفرنسا هي وعائلتها قبل الزواج.

**ماريا:** ابنة السيِّد خالد، فتاة لا تتجاوز العشرين، جميلة ومُتعلِّمة، تَميل إلى أمها أكثر من أي شخص آخر.

**السكرتير مصطفى:** شابٌّ صغير، يعمَل مُحاسب وسكرتير في حانوت السيِّد خالد.

**الخادم:** خادِم بمَنزل آل سَلمان.

**الفصل الأول**

**المشهد الأول**

غرفة واسعة في منزل السيد خالد تبدوا كأنها مكتب عمل خاص، يوجد بابٌ في وسط الجدار الخلفي للغرفة يؤدِّي إلى بهو في الطابق السفلي للمنزل، ويظهَر كذلك مكتب صغير على اليسار فوقه أوراق ودفاتر مُبعثَرة وأريكة فاخِرة من الجِلد على أقصى اليمين.

(يُرفع السِّتار على رجل مُنهمِك في تلك الأوراق وهو سكرتير خالد، وتُشير الساعة على الحائِط أنها الثامنة صباحًا).

السكرتير: (مُخاطِبًا نفسه) آه لو يعلم سيدي بهذا! لا بد أنه يعلم؛ إنه لا تخفى عليه خافية في سيرورة العمل، إنه ضنين على المال والكسب.

(يدخل السيِّد خالد)

خالد (بتحية موجزة): أهلاً.

السكرتير: صباح الخير يا سيِّدي.

خالد: لا بُد أنك أحضرت اليوميات المحاسَبية كلها، وأرجو أن تكون ببالك.

السكرتير: نعم أحضرتها يا سيدي.

خالد: وهل قمتَ بترتيبها؟

السكرتير: نعم، قمتُ بترتيب نِصفِها.

خالد: نِصفها؟!

السكرتير: (بتردُّد) سأُنهي ما تبقى قبل الظهيرة يا سيدي.

خالد: حسنًا.. حسنًا، لا تسرد عليَّ هذا، يَكفيني شغلي.

(يعود السكرتير إلى الانهماك في الأوراق ولا يرفع رأسَه)

خالد (بمضض): أطلِعني على نتائج الدفاتر التي قمتَ بترتيبها، عمل يوم واحد سنقوم به في ثلاث أو أربع أيام؛ لأن سكرتيري الشاطر لَم يقُم بترتيب جميع اليوميات.

السكرتير: ثانية يا سيدي.

خالد: وأنتظر أيضًا؟!

السكرتير (باضطراب): في الحقيقة يا سيِّدي...

خالد (يقاطعه): ماذا أيضًا؟

السكرتير: الحقيقة أنني أخطأت في ملأ بعض الحسابات، فأخذ مني ذلك وجوب تصحيح الأخطاء قبل ترتيبها.

خالد (يَنتفِض): يا له مِن صباح، أنت تُخطئ أكثر مما تُصيب.

السكرتير: عذرًا يا سيدي، لن يستغرِق الأمر طويلاً، أعدك بهذا.

خالد: آه لن يستغرِق طويلاً، يبدو أنك مرتاح، لكن أنا لست كذلك، ولن أكون مرتاحًا أبدًا، عمل يوم نقوم به في أسبوع (يُحدِّق في عيني السكرتير) إنك شابٌّ غرٌّ لا تَحذِق هذا العمَل.

السكرتير (لا يرفع رأسه): سأعمل جاهِدًا على إنهائه قبل الظهيرة يا سيدي.

خالد: إذًا ستقوم بتصحيحها وترتيبها؟! كل هذا قبل الظهيرة.. يا لك من فحل!

السكرتير: سأَجتهِد يا سيدي.

خالد (يَنتصب على رأسه): إن العمل لا يتطلب جهدًا، بل يَستوجب حَذاقةً وفَراسة، وعلى الظاهر أنك فقير إلى هاتين الميزتين، ومن يكون عوزه على هذا، خير لهُ أن يرى عملاً لا يطلب منه سوى الراحة والخمول.

السكرتير: لك الحق يا سيدي.

خالد (مُخاطبًا): إن تكاليف هاته البلاد مرتفعة جدًّا، وإن لم يكن الإنسان حَذِق أو فراس في جمْع الأموال والشروع في الاستثمارات فستكون عاقبته بلا ريب كارثية ومُخزِية، وينزل بنفسِهِ إلى حضيض الفقر والذل، وأنا لا أرغب في هذا أن يحصل (يواصل خالد كلامه وهو يقطع الغرفة كثيرًا) يظن بعض الناس أن رجل الأعمال الناجح قد تخلَّص من شقاء التفكير والتخطيط يوم غازل نشوات النجاح لأول مرة، ما أغبى هذا الاعتقاد، إني منذ وصولي إلى هاته البلاد وأنا أُخطِّط وأنظر إلى الاستثمارات بعين الذئب الذي يريد أن يربح بلا أدنى خسارة (يتجه نحو سكرتيره)، أتريد مني الربح أم الخسارة أيها الشاب مصطفى؟

السكرتير (يرفع رأسه أخيرًا): أكيد أنني أريد لك...

خالد (يقاطعهُ): إذًا، أرني ما جاء في تلك اليومِيات يا مصطفى.

السكرتير: سأُرتِّبها يا سيدي، وأصحِّحها، أنسيت هذا؟!

خالد (يضع كِلتا يديه على المكتب وبنبرة ثقة): أنا أعلم يا بني أنك لم تُخطئ في الحسابات باليومية، وأعلم كذلك أنَّك قمتَ بترتيب أكثر من نصفِها، ولكنك تريد أن تؤجل إخباري بحقيقة الوضع المالي والنتائج، أنت خائف من قولك الحقيقة، أليس كذلك؟!

مصطفى لم يرد...

خالد: لا تجعلني أفقد صوابي، تكلم.

السكرتير: إن التكاليف أكبر من الإيرادات يا سيدي.

خالد (يستطير غضبًا ويَصرخ): آااه، هذا ما كنت أعلمه، يا لغبائك أيها الأخرق، كنت سأعرف الأمر عاجلاً أم آجلاً، فلِما هذا التمثيل منك؟

(السكرتير يصمت)

خالد: أفهم مِن فعلك هذا أنك تُشفِق عليَّ، أليس كذلك؟ هل تشفق عليَّ أيها الشاب؟

(يواصل الصمت)

خالد: دعني أخبِرك أمرًا تجهلهُ، لما كنتُ أنا في سنِّك كانت لي أسهم في أحَد أنجح الشرِكات في شرق الجزائِر، وكنت رمزًا للبداهة والبسالة في ميدان الأعمال الحُرة، وها أنا أقِف على عتبة عقدي السادس أمام شابٍّ غضٍّ يرى أنه يجب أن يُخفي نتائج عملي لكي لا أضطرب أو أصرُخَ في وجهه نادبًا ومُنتحِبًا، (بغضب) أرني اليوميات أيها الشاب؟

السكرتير: (يناول الأوراق لخالد) لك هذا يا سيِّدي.

خالد: (يَنتشلها بِحنق) أترك (يُحملق فيها طويلاً) إنَّها أسوأ من الأشهر الغابِرة، لقد ساءت الأمور أكبر ممَّا كنتُ أتصوَّر (يلتفت إلى السكرتير) إن نتيجة الدورة لم تتغير، بقيت سالِبة وتُنبِئ بالخسارة.

السكرتير (يحاول أن يُخفِّف شدة الأمر): هذا العام يا سيِّدي كل رجال الأعمال يشكون مِن ارتفاع التكاليف وانخِفاض أسعار الألبِسة الصوفِيَّة في الأسواق، وبعض الخبراء يا سيِّدي يفسِِّرون هذا أو يؤكدونه بإهدار موسم الجزِّ السَنوي الذي تبعه إهمال مُفرِط لمصانع الصوف.

خالد: لا يهمُّني باقي المستثمرين ورجال الأعمال، أنا أتكلم عن نفسي وعن الطريق التي سَيَنتهي إليها مصيري كمستثمر في هذا المجال، أنت تجهل معنى الخسارة في سنتين متتاليتين. أنت جاهل!

السكرتير: أفهم ما تَعنيه يا سيِّدي، لكن لا بد من الصبر على الخسارة كما يَصبِر المريض على طعم الدواء المُر.

خالِد (بغضَب): الصبر على الخسارة، لا بد أن مثلك يَرضى بالخسارة.

السكرتير: ليس هذا ما عنيته لك يا سيِّدي.

خالد (يَدفع بقوة الأوراق إلى سطح المكتب): في الأول تُشفِق عليَّ، ثم تخفي عني نتائج عمَلي، وأنت الآن تريد أن تعلمني الصبر.

السكرتير: ليس قصدي يا سيِّدي أن...

خالد: (يقاطِعهُ) اصمتْ وإلا طردتك من هذا العمل، وأتركك لسبيلك تبحث عن عمل في هاته البِلاد التي تُطارِد أمثالك ليكَوِنوا بها عبيدًا أو خدَمًا.

السكرتير (في شيء مِن الذلِّ): لا أريد هذا يا سيِّدي أن يحدث، بل كل ما في الأمر أني أريد أن أعضدك وأعاوِنك.

خالد (يهدأ قليلاً):لا أريد مِنك معاونة، فقط قُم بعملك على أحسن وجه، فتلك هي مساعدتك.

(صمت)

السكرتير: ما العمل الآن يا سيِّدي؟

خالد: (في مكر) لقد خططتُ لأمرٍ يا بُني.

السكرتير: ما هو؟

خالد: لقد ذكرتُ لك أنني كنت أملك أسهمًا في شرِكة جزائرِية ناجِحة، أليس كذلك؟

السكرتير: نعم يا سيدي أخبرتَني منذ قليل.

خالد: صحيح، وسأُضيف لكَ شيئًا: حاليًّا هاتهِ الشركة لا زالت بنفس السمعة والنجاح الذي ظلت تشهَدهُ طيلة نشأتِها، وتُعد من أكبَر الشرِكات المُنتِجة للصوف في البِلاد.

السكرتير: وأنت لم تعُد تملك أسهم بهذا المعمل يا سيِّدي.

خالد: (في خبث) صحيح، لم أعد أَملِك أسهمًا، لكني أملك فيها شيئًا آخر.

السكرتير: ماذا؟

خالد: ليس من شأنك أيها الشاب.

السكرتير: كما تشاء يا سيدي.

خالد (يَضحَك): ولكن سأُخبرك قليلاً، لِمَ لا!؟ أنا أعرِف مُسيِّري هاتهِ الشركة كما أعرِف عائلتي، وأعرف أسرارها كما أعرِف زوايا منزلي، وقد قمتُ بدعوتهم الليلة إلى منزلي على سبيل أنني صديق قديم للسي العربي وفي نفس الوقت أطرَح إمكانية شراكة بيننا.

السكرتير (في فضول): من هو السي العَربي يا سيدي؟

خالد: مؤسس هذا المعمل لِصناعة الصوف "آربيكلوذ"، لكنه توفي قبل أكثر من خمسة عشر سنة، وكنت آنذاك شاب في مثل سنِّكَ، فقد كان السي العَربي يثق بي ويُعظِّمني، ولكنَّه كان يثق في علي أكثر مني ويُبجِّله عني دائمًا، رغمَ أنَّ كلينا مجرد صاحب ومُساهِم في الشركة.

السكرتير: ومَن دعَوت إذن للحضور؟

خالِد: دعَوت السيِّد علي، والشاب أمير، فهُما رأسا هاته الشركة حاليًّا.

السكرتير: مَن هو أمير يا سيدي؟

خالد: إنه المالك الوحيد لهاته الشركة وبكل ما فيها، إنه ثري.. ثري جدا.

السكرتير: وما شأنهما في التخلُّص من هاته الأزمة التي انتابتْك كثيرًا؟

خالد: سأقوم بخطة، لن تخطر ببال السيد علي إطلاقًا، ولن يحسب لها حسابًا.

السكرتير (في دهشة): وهل تخرجك يا سيدي هاته الخطة من هذا الوحل..

خالد: أكيد، إنها شراكة مع أنجح المؤسسات.

السكرتير: ولكن كيف؟ لا بد أن شراء أسهُم للاستثمار باهظة جدًّا.

خالد: انسَ الأمر، فقط اهتم بتلك الأوراق وقم بمراجعتها أكثر من مرة، مفهوم؟

السكرتير (يعود إلى استغراقه في تلك الكومة من الأوراق): حسنًا.

(يدخل الخادم يحمل كوب قهوة وغليونًا للسيد خالد)

الخادم (يتَّجه إلى خالد): تفضَّل يا سيدي.

خالد (يومئ بإصبعه نحو مائدة صغيرة): ضع القهوة هناك، وناولني الغليون.

الخادم: أجل، (يتهيأ للانصراف ثم يتوقف) سيدي، قد اتصل السيد أمير ويقول: إنه سيصل بعد ثلاث ساعات أو أقل.

خالد: والسيد علي، هل هو برفقته؟

الخادم: أجل يا سيدي، وكذلك زوجته ليلى.

خالد: (يشعل غليونه ويتنعَّم) جميل، أظن أن الأمر يسير كما يجب.

(ينصرف الخادم ثم يخرج خالد مباشرة)

السكرتير (مخاطبًا نفسه): ربما العم خالد على حق، أو ربما هو يهذي فقط، العمل بالغربة يستحقُّ العناء، لا بد أنه على حق! مَن يدري؟!

**المشهد الثاني**

غرفة الاستقبال لمنزل السيد خالد، تبدوا الغرفة بديكور تقليدي محلي، يظهَر على الحائط المباشر صورتان فنيتان لرسام تجريدي، وعلى اليسار أريكتان متعامدتان بينهما مائدة زجاجية صغيرة فوقها كرة ورودٍ، وعلى اليمين توجد منضدة مزركشة عليها أواني وبعض الزينة.

(يدخل السيد خالد وأمير بعد وصوله بساعة أو أكثر يتحادَثان بحفاوة)

خالد: (وهو يُمرِّر ساعده حول عنق أمير) أنا حقًّا سعيد لرؤيتك في منزلي يا أمير.

أمير: وأنا كذلك يا عم خالد.

خالد: آخر مرة جلست فيها معك وتحدَّثت إليك كانت في زمن حداثتك، ولم أرك منذ ذلك الردح، وها أنا أقف اليوم حذاءك وأنت شاب يانع، بل رجلٌ.

أمير (يضحك): صحيح يا عمو خالد، وأنا لولا مخاطبتك إياي قبل أيام، لم أكن لأعرفك، بل كنت أجهل تمامًا أن لأبي - رحمه الله - صديقًا يُدعى خالد سلمان.

خالد: لا بأس بهذا، يبدوا أن السيد علي لم يحدِّثك يومًا عني.

أمير: نعم.

خالد: لا يهم، ها نحن نلتقي، أليس كذلك؟ سنتكلم ونتسامر.

أمير: أجل.

خالد: (يتجه نحو الأريكة) تعال يا بني اجلس (يجلسان) كان حلم السي العربي أن يشهد كل لحظة نمو تمر عليك، وأن يرى زواجك وسعادتك.

أمير: (بتنهد) نعم، لا بد أنه كان يتمنَّى ذلك.

خالد: ومَن لا يتمنى هاته المعجزة؟ لكن الدنيا رحلة طويلة يا ولدي، لا يدرك المرء أين تسير أو أين ستتريَّث وتركُد.

أمير: صحيح، وأنا من المسلِّمين لهذا القدر.

خالد: وأغرب ما في الأغرب أن الدنيا لا ترضى بسعادة مؤبَّدة لأي إنسان، فهي تحسد السعيد وتذمُّ المتنعم وتحقد المغتبط، ولم تلبث أن تترك هؤلاء على حالهم حتى تكدر صفوة ماء عيشهم بنجاسة الشقاء والشجون.

أمير: ربما هي معادلة الوجود يا عم خالد؛ سعادة زائد شقاء تساوي إنسان.

خالد: أتعتقد بهاته المعادلة فعلاً؟

أمير: حتمًا؛ لأن لكل منا في وجدانه ذرات من السعادة وذرات من الشقاء، والإنسان السعيد هو الذي يرى ذرات سعادته فقط، ويغضُّ نظره عن تلك الذرات الشقية.

خالد (يبتسم): استِنتاج جميل، وأنت يا أمير شقيٌّ أم سعيد؟

أمير (بلا تردُّد): سعيد.

خالد: يبدو أنك واثق.

أمير: بلى.

خالد: وصادق أيضًا؟ (يدغدغ بيده رأس أمير).

أمير: أنا أشكر الله على آلائه ولا أقنَط من رحمته.

خالد: رائع أن أرى شابًّا في قدر ذكائك وفطنتك.

أمير (مُغتبطًا): شكرًا لك يا عمو خالد، ومثلي يسعد بالاجتماع مع رجل حكيم بقدرك (يَنظر إلى السيد خالد بفضول) وأنت يا عمو، سعيد أم لا؟

خالد (في تحدٍّ): كيف تَجدني أنت؟ سعيد أم لا؟

أمير (يتكهَّن): رأيتك تحذف لحظة وصولِنا من السفر سعيد أمام زوجتك وابنتك، ولهاته اللحظة أراك كذلك.

خالد: فهمتُك يا بني.

أمير: ولكني أجهل تمامًا ما يدور في وجدانك، أكانت ذرات (يلتفِت إلى الوراء ولم يُكمل كلامه).

(يدخل الخادم وكأنه يُنقذ خالدًا مِن الاستِغراق في هذا الموضوع).

الخادم: آسِف يا سيدي على المقاطعة.

خالد: لا بأس، ماذا هناك؟

الخادم: طلبت مني السيدة خديجة أن أسألك إن كنتَ ستتسوَّق لشراء فلييه سمك، فهي تريد أن تعمل طبقًا خاصًّا للسيدة ليلى.

خالد: النساء كثيرات الطلب، سنذهب، قل لها: إننا سنَخرج حالاً.

(يضحكون)

الخادم (يُحرِّك رأسه موافقًا): حسنًا.

خالد: ألم يصل بعدُ السيد علي؟

الخادم: سأتَّصل به يا سيدي، هل هناك شيء آخر؟

خالد (ينتفِض من مكانه بهدوء ويَنتصِب أمام أُذنِ الخادم ويقول له في همس): عندما يحضر السيد علي وأنا لست بالبيت، اجعله يجلس هنا في غرفة الاستقبال ولا تدعْه يدخل إلى المكتب.. مفهوم؟

الخادم: حاضر (يَنصرف).

خالد (في خفَّة): لم تذكر لي كيف هي علاقتك مع السيد علي، وكيف تسير أحوال معمل الصوف ببلاد الجزائر.

أمير: كل شيء تمام يا عم خالد، العم علي ضنين عليَّ كثيرًا، ولا أكاد أتصرَّف في أمر حتى أجده يتدخَّل بحكمته وموعظته فيمنحني وقارًا ووداعةً، ومثلك يعلم أنه حريص على العمل وشديد العزم والجدِّ.

خالد: نعم هو كذلك.

أمير: وفي الحقيقة أشعر أنني لا أعرف ما عليَّ فعله إن توارى عني أيامًا عديدةً؛ فهو ساعدي الأيمن، فإن غاب خابت أفعالي وساءت عاقبتي.

خالد: واضح أنه ضنين عليك للغاية، أو أكثر مما يَنبغي!

أمير: نعم؛ لا ريب في هذا.

خالد: وحتمًا هو يُساعدك في تسيير الشركة.

أمير: هو أراد أن أتولى رئاستها والقيام على رأسها كمُدير، ولو كان الخيار يرجع إليَّ لفضَّلته عني، وأردته أن يكون مدير هذا المعمل لجزيل خبرته وبداهة فطنته وحذاقته، لكنه انتظر مني أن أكمل شهادة الماستر في إدارة الأعمال ليُجنِّدني على دأب سيرورة العمل ومنهجية "البزنِس" والتجارة، وهكذا لم يزل عم علي إلى وقتنا هذا يعلمني ويهيئني للتحسن في هذا المجال.

خالد (بصوت يكاد لا يسمع): يا لك من محظوظ، ويا لحظِّ ذلك السيد علي.

أمير: عفوًا؟!

خالد: لا عليك، لا شيء، إذًا السيد علي مساعدك في الإدارة.

أمير: بلى، وكذلك الأمين.

خالد: هو هكذا النجاح في التجارة يا بُني، عبارة عن طلسم خليطه يتكون من الخبرة وقليل من الشبيبة الغضَّة، ومعمل "آربيكلوذ" تولد من الخبرة وأفكار الشباب؛ فقد كان السي العربي يمثِّل الخبرة وأنا والسيد علي معًا نُمثِّل روح الشباب.

أمير (في فرح): أعجبني رأيك كثيرًا يا عمو.

خالد: شكرًا، ولهذا دعوتك يا أمير لكي نرى إمكانية توليد شراكة بيننا؛ أي: بين القطبين الخبرة والشباب (في مزاح) فإن كنت ترى أن السيد علي ذو قدرة على التجارة فأظن أنني أقدر.

أمير: لك الحق يا عم خالد، حتمًا سنُناقش هاته الشراكة، وإني لأرى الخير فيك أنت وعم علي، ربما يمكننا أن نرتقي بالشركة إلى أوج النجاحات والإنجازات، لم لا؟!

خالد: بالتأكيد نعم، هكذا تبدو لي أنك متمرس وشابٌّ يَعرِف زوايا وخبايا نجاحه.

أمير (في حماس): سيفرح عم علي بالأمر، أليس كذلك؟

خالد: طبعًا.

أمير: دعنا ننتظرِه لنُناقش هذا الموضوع.

خالد (كأنه يتذكر شيئًا): بالطبع سنُناقش هذا، ولكن دعنا نخرج إلى شوارع باريس الراقية لنرتع ونستمتِع بالحديث عن هذا الموضوع، وبعدها نشتري تلك الأسماك ثم نعود على أثر خطواتنا ربما نجد السيد علي قد وصل، ما رأيك؟ أليس هذا أفضل؟

أمير (في فرح): الصواب أيها العم خالد.

خالد: لا بد أنك متعَب من السفر، وأنا أريدك أن ترافقني، ليس عليك هذا إن شئتَ يا بني.

أمير: أودُّ الخروج إلى تلك الشوارع.. (في تلذذ) شوارع باريس.

خالد: إذًا دعْنا لا نقصر.

(يتمشيان بخطوات صغيرة نحو الخروج وهما يُلقيان آخر نفَسِ حديثهما بالغرفة)

خالد:.. وكيف حالك مع زوجتك؟ بدوتُما لي سعيدين منذ أول نظرة أسقطتها عليكما!

أمير (في خجل): هذا صحيح.

خالد (بصوت بدأ يتلاشى): لا بد أنك تُحبُّها.

أمير: نعم، أحبها كثيرًا.

خالد (صوت بعيد): بوركت يا ولدي (يخرجان تمامًا).

(من الجهة الأخرى يدخل النِّسوة الثلاث؛ خديجة، وليلى، وماريا).

خديجة: يبدو أننا بمفردنا، قد رحل الرجال.

ليلى (تضحك): أجل.

خديجة: عندما أسمع زوجي خالد يتكلم عن التجارة والبزنس، أكاد أصاب بالغثيان؛ لا يروقني هذا الحديث إطلاقًا.

ليلى: التجارة والبزنس، كأنهما أكسجين البعض.

خديجة: أحسنتِ؛ هما أكسجين زوجي.

ليلى (مغتبطة): إذًا الحق له ألا يتخلى عنهما أبدًا، فهما أكسجين.. لا يُمكن العيش بدونه.

خديجة (تضحك): صحيح، أنت مَرِحة جدًّا يا مدام ليلى، أشعر بلذة كبيرة عند الحديث معك، كأنني صديقتك منذ أزل.

ليلى: شكرًا يا مدام خديجة، في الحقيقة شعرت بالراحة وأنا حولَيكما.

ماريا: أهلاً بك يا ليلى.

ليلى: شكرًا يا عزيزتي الجميلة.

ماريا: (تدعوهما للجلوس) تعالي يا أمي.. لنجلس ونتحدث قليلاً، فأنا أظن أننا سنَشتاق كثيرًا لليلى عند عودتها.. (يجلسن).

خديجة: ربما لن نشتاق إلى السيدة ليلى يا بُنيَّتي.

ماريا (في استِغراب): كيف؟

خديجة: لقد دعا أبوك زوجها أمير لمناقشة احتمالية بناء شراكة.

ماريا: وبعد؟

خديجة: وبعد!.. سيكون ربما على أمير أن يرتحل إلى هاته البلاد، وهكذا ستكون السيدة ليلى بجوارنا، ألا تحبِّين هذا أن يحدث؟

ليلى وماريا (كأنه صوت واحد): بلى.

خديجة: بكل تأكيد.

ليلى (في مزاح): التجارة والبزنس رائعين؛ في هاته المرة مال الكيل إلى صالحنا.

خديجة (تضحك): تمامًا.. أنتِ لَبِقة جدًّا يا ليلى.

(يضحكْن)

ليلى: (في جدٍّ) ولو حدث العكس.

خديجة: ماذا العكس؟

ليلى: ماذا لو كان اتفاقهما على أن تكون الشراكة بالجزائر، وحينها يستوجب على زوجك خالد أن يَرتحِل إلى هناك، هل تقبَلين بهذا؟

خديجة (تفكِّر): لا أعلم.

ماريا: أظن أن الأمر يختلف.. هذا رأيي.

خديجة: (تتنفس الصعداء) تمام.. هذا رأيي أيضًا.

ليلى: كيف يَختلف؟

خديجة: (في تردُّد) في كل شيء يا مدام ليلى؛ فكلا ولديَّ وُلد هنا ودرس وتعلم في هاته البلاد، وإن كنا نزور بين الحول والحول بلاد الجزائر لمُقابلة بعض الأهل، وأنا أيضًا استغرقت طويلا على أرض فرنسا، فحتمًا سيكون تحولنا عنها بمثابة تغيُّر حياة كاملة.

ليلى: أفهمُكِ، صحيح.

خديجة: ربما إذا ترحَّلْنا نحن سيكون الأمر تغيُّر شديد، وإذا ترحلتم أنتم سيكون ارتقاءً، أرجو أن تفهمين قصدي يا عزيزتي!

ليلى (في تفهُّم): أنت محقَّة يا سيدتي خديجة، ربما التحول من الجزائر إلى فرنسا أحسن من العكس.. صح.

خديجة: أحببت تفهُّمكِ يا عزيزتي.

ماريا: هذا واقع، أليس كذلك يا مدام؟

ليلى: نعم للأسف.

خديجة: واعلمي أني أبجل وأحبُّ وطني كثيرًا.

ماريا: وأنا أيضًا، الحق أقوله لك: أشعر بنشوة زهية عند سماع شيء عن الوطن، وأنت اليوم يا سيدتي ليلى أعظم برهان على ذلك، أنا سعيدة لأنك معنا.

ليلى (مداعبة): والأجمل أنت يا "حلوة".

خديجة: دعونا لا نكدِّر هذا الجو بأحاديث رسمية مُملة، أو فوق طاقة أيدينا نحن معشر النساء.

(يضحكن)

ماريا: (تستأذنهما وتقف) لي شغل صغير، سأقوم به وأرجع فورًا.. (تخرج).

ليلى (تظل تنظر إلى ماريا حتى تتوارى عنها وتمضي، ثم تقول بلطف): إنها رائعة، بارك الله فيها.

خديجة: شكرًا يا عزيزتي ليلى، مُسعِدٌ أن أسمع منك هذا.

ليلى: إنها فتاة ذكية وخلوقة وجميلة، كما أنها تبدو أكبر من سنِّها.

خديجة (تبتسم): أشكرك جزيلاً على رأيك في ابنتي، إنها في الثامنة عشرة.. صحيح أنها تبدو أكبر، وهذا حال كل شباب أوروبا.

ليلى: ربي يحفظها لك ولأبيها.

خديجة: إن شاء الله يا عزيزتي، هل تسمحين لي أن أسألك يا ليلى؟!

ليلى: بالطبع، تفضلي.

خديجة: شكرًا، ولكني أخجل أن يكون في غير مقامه، مع أنني تذكرتُه عندما جاء حديثنا عن ابنتي ماريا.

ليلى (في استغراب): لا عليك يا عزيزتي، تفضلي.

خديجة: لما كنا نتحدث في الأسفل وسألتك عن أولادك، أطرقتِ واستحال وجهُكِ إلى وجه واجم وعبوس، ما الأمر يا حبيبتي؟

ليلى: (تُطرق رأسها ثانية وتصمُت).

خديجة: أرجو ألا أكون قد أحرجتُكِ.

(ليلى لا تنبس بكلمة)

خديجة: معذرة، أنا ثرثارة حقًّا، دعينا من هذا.

ليلى (تقاطعها): لا.. لا تقولي هذا، اغفِري لي أني سكتُّ ولم أتكلم، أنا التي أحرجتك.

خديجة: لا بأس، هل هناك أمر يا عزيزتي؟

ليلى (في صوت يائس): ليس لدينا أطفال؛ لأنني لا أنجب يا سيدة خديجة.

خديجة: آآه آسفة يا عزيزتي، لم أكن لأسألك لو علمت بالأمر، أنا حقًّا آسفة.

ليلى: أنت صديقتي، لا عليك.

خديجة (تقترب من ليلى وتمسك راحة يدها): أتمنى ألا يأخذ هذا من نفسك جفلاً وتعاسةً، وأخشى ما أخشاه أنني أيقظت شعورًا لا تودِّين أن تتذكريه أو تتحدثي عنه، لا أريد أن أغتصبَ سعادتك يا حبيبتي، لكن الفضول دفعني وجعل ثغري ينطق رغمًا عني.

ليلى: لا وزر عليك يا عزيزتي، وأنا حقًّا أرغب في التِقاط بعض أسراري لأردِّدها على مسامعك، فأظن أنك تتفهمين حال كل امرأة وضْعُها يُحاكي وضعي.

خديجة: أرجو هذا حقًّا، ويُفرحني حسْنُ ظنِّكِ بي، أتريدين أن تتكلمي وتُصارحينني يا ليلى؟ تكلمي، فأنا أمامك لأزيل عنك بعض الوساوس وأنتشِلَ منك بعض الهموم.

ليلى (بعد صمت وجيز): ولدتُ في عائلة فقيرة تأخذ منها الفاقة مِن كل زوايا المعيشة، من الطعام إلى الملبس إلى الصحة، وكنت أنا الأكبر سنًّا بين إخوتي وأنضجهم عقلاً، فرأيت أن سبيلي في الحياة يستوجب ألا أكمل التعليم لأنه يكلِّف عائلتي بما لا تطيق، فتنقَّلتُ بين الأعمال والمهن الشريفة، من مُساعِدةِ خيَّاطةٍ، إلى بائعة في حانوت قماش، إلى أعمال بسيطة أخرى أعضِّد بها أبي على تحمُّل التكاليف، ثم انتهيت كموظَّفة في طباعة الأوراق وخَتمِها في شركة محلية مرموقة تُدعى "آربيكلوذ".

خديجة (في انتباه شديد): نعم.. نعم.

ليلى: وكان مدير هاته الشركة "آربيكلوذ" رجل شاب، جلي السمعة الحسنة بين العامة والخاصة، يقدِّره من يعرفه والذي لا يعرفه، كان شديد الذكاء لدرجة أنه يَعرف أوضاع كل العاملين في تلك الشركة، من أسمائهم إلى انتِسابهم إلى حسبهم، وكان يُبدي كل الاهتمام والاكتراث إلى من حوليه.

خديجة: الشخص على أفعاله يقَع.

ليلى: تمام... كان يسأل عني كما يَسأل عن جميع العُمال، ويُجاملني كما يجامل غيري، فأحببتُه كثيرًا كما أحبه الكل، ولكني لم أكن أحبه ذلك الحب الذي نُبديه إلى شخص لبق ومحسن، بل ذلك الحب الذي يتولَّد من شغاف القلب، الحب الذي يأتي بغير إنذار.

خديجة (في شوق): أفهمُكِ... أكملي.

ليلى: ظل هذا الحب يَنتابني كلما تذكرته أو رأيته حتى صار يسكُن مُهجتي، ولكني ظللت أكتم هذا الحب؛ لأن فتاة مثلي لا تطمع في رجل طموحُه ورغباته أسمى مِن أن يتزوج فتاة شقية بحالي، فظل هذا اعتقادي الذي لا رجعة لي عنه، حتى جاءني في يوم من الأيام هذا المدير الذي أُحبه خفية إلى المطبعة، وطلب مني إن كنتُ أودُّ أن أقابله بمفردي عند مكتبه، فأحسستُ برعشة شديدة مِن أعلى رأسي إلى أسفل نعلي، وافقتُ على طلبه وصعدت معه إلى مكتبه، فدخلْنا، ثم جلست على أقرب كرسي رأيته وانتظرت ماذا سيحدُث، لا زلت هكذا حتى التفتَ ونظر إليَّ بوجه ملأَهُ الخجلُ والتردد ثم قال: "أريد أن أصارحك يا آنستي" فجفلتُ وأومأت برأسي على الموافقة، ثم استمر قائلاً: "أودُّ أن أطلب يدك من أهلك، ما رأيكِ أرجوك؟" ما كاد ينهي كلامه حتى انتفضتُ مِن مكاني وهرولتُ إلى الخارج ثم انصرفت وليس لديَّ أدنى فكرة عما فعلته. (تصمت)

خديجة (مركِّزة بشدة): وبعد؟

ليلى: وعندما انتهَيت إلى المنزل شعرت كأن الأرض قد انقلب عاليها على سافلها، وأنا ألوم فعلتي الغبية الساذجة، وفي اليوم التالي كان يوم عطلة، وكان كذلك أسعد يوم في حياتي، فقد جاء فعلاً "أمير" مدير الشركة من أجل خطبتي.

خديجة: وهو بعلُك الآن، أليس كذلك؟

ليلى: بلى، ثم تزوَّجنا فساعد عائلتي على الخروج من وحل الفقر، وساهم في تعليم إخواني بالمدرسة، كما جعل لأبي منصبًا بالشركة ليضمنَ حاجيات أسرته.

خديجة (عبرات في عينها): كم هذا رائع يا عزيزتي؟!

ليلى: وكان يعلم أنني لم أُكمِل تعليمي، فساعدني على التعليم الذاتي، واشترى لي كل ما يمكن أن يرفع ثقافتي ومعرفتي، فتمكَّنتُ حتى من إتقان اللغة الفرنسية والإنجليزية خلال مدة زواجنا.

خديجة: بوركتم يا عزيزتي.

ليلى (تطرق رأسها من جديد): ولكن بعد عام من زواجنا تبيَّن أنني عاقر لا أنجب أطفالاً، فزُرْنا وعايدْنا عدة أطباء بل كل أطباء البلاد، واجتمع كل هؤلاء الأطباء على رأي وحكم واحد، وهو أن حالة عقمي مستعصية وحتمية، لا سبيل لها للعلاج.

خديجة: لا عليك... لم أحسب من كلامك هذا إلا أن زوجك يُحبك أكثر من شيء آخر في العالم، أليس كذلك؟

ليلى: نعم هو يحبني، (تذرف دموعًا حزينة) لكن أليس من حقه أن يَحظى بأطفال كباقي أترابه... (تزيد في شدة البكاء) ألم يكن يحلم في يوم من الأيام أن يُصبِح أبًا؟ قولي لي... ألا ترين أن حلمه قد تحطم؟!

خديجة (تُقاطعها وتُشفِق عليها): هوِّني عليك يا عزيزتي.

ليلى (تستمر): أحيانًا أشعر بأنني عتبة صلدة في حياته، أُعطِّله عن أحلامه وطموحه.

خديجة: لا أظن هذا إطلاقًا يا عزيزتي، ألم تقولي لي: إنه أعظم الرجال، وأقول الحق لك: إن صاحب المبادئ كجبل من الصخر لا يُحرِّكه شيء، وظنِّي بزوجك أمير هكذا، لا تقلقي، أنت تعلمين أنه يحبك كثيرًا، ولو كان غير ذلك لرأى أمرًا غير هذا الأمر والواقع الحالي، لا تعذلي نفسك يا عزيزتي.

ليلى: أحيانًا ألوم نفسي.

خديجة: هكذا أنت مُجرِمة في حق نفسك يا ليلى، خفِّفي على نفسك ولا تشغلي بالك بهاتِه الأوهام، وأضيفي إلى ذلك أنها مشيئة الخالق.

ليلى: نعم.

خديجة: إنه قضاء وقدر، هل تُسلِّمين لهذا الأمر يا عزيزتي؟

ليلى: بالتأكيد.

خديجة: وهكذا الحياة كلها قدر.

ليلى: صحيح، شكرًا على كلامك يا سيدتي خديجة، أظن أنني شغلتُك بقصة حياتي، على ما يبدو أنني كلَّفتُكِ بسماع حديث ليس له مبرِّر في هذا المجلس المَرِح.

خديجة: لا.. لا.. في الحقيقة استمتعتُ لأنك شاركتِني في هذا.

ليلى: أظن أنني خففتُ على نفسي قليلاً (تعود ابتسامتها وصوتها إلى عادته).

خديجة: أنا سعيدة لأجلك يا عزيزتي.

(تدخل ماريا)

ماريا: أرجو ألا أكون قد قطعت حديثكما.

ليلى: لا يا جميلتي.

ماريا (في حماس): ماذا فاتني من الكلام أيتها السيدتين؟!

خديجة: دعيني أحرز... كلام امرأة في الأربعينيات، وفضول شابة في العشرينات.

ليلى (تضحك): صحيح... هذا ما فاتك يا عزيزتي.

(يضحكْن)

(يدخل الخادم)

الخادم (يُخاطب السيدة خديجة): لقد وصل السيد علي يا سيدتي، وهو يَنتظِر في البهو.

خديجة: حسنًا، ألم يصل بعد زوجي خالد وأمير؟

الخادم: ليس بعد.. أين أدعو السيد علي للجلوس يا سيدتي؟

خديجة: أرجوك اجعله بالمكتب حتى يَصل خالد والسيد أمير.

الخادم: حاضر (ينصرف).

ليلى: عم علي مِن أشرف الناس الذين قابلتهم، فهو ضنين جدًّا على زوجي أمير، لم أرَ اختلافًا بينهما منذ قراني.

خديجة: نعم... وقد ذكر لي خالد أنه كان صديقًا عتيقًا للسيد علي.

ليلى: بلى.

ماريا: وأنتما كذلك أصبحتُما صديقتين، أليس كذلك؟

خديجة: نعم يا بُنيَّتي، بل أعز صديقتين، لقد أحببت السيدة ليلى كثيرًا؛ فهي صادقة ومُخلصة، ولهذا أنا أشعر كأنني أعرفها منذ أزل (ليلى تحتضن السيدة خديجة).

ماريا: يقولون: "إن الصداقة تتولَّد من الأيام والدهر" لا أظن هذا إطلاقًا.

(ستار)

**الفصل الثاني**

المكتب الخاص بمنزل السيد خالد، نفْس مشهد المشهد الأول للفصل الأول.

(السكرتير لا يزال في المكتَب، يشتغل على تلك الدفاتر، وفي الجهة اليسرى السيد علي واقف باحتشام وقد دخل لتوِّه، الساعة الحائطية تشير إلى الساعة الثانية وربع ظهرًا).

علي: اعذرْني أيها الشاب، ربما أزعجتُ عملكَ عند دُخولي.

السكرتير (دون أن يرفع رأسه من المكتب): لا بأس.

علي: حسن (يحوم على الغرفة ذهابًا ورجوعًا بخطوات قصيرة) أنا أنتظر السيد خالد، ألا تعلم أين غدى؟

السكرتير: لا يا سيدي.

علي: وهل رأيت أمير برفقته؟

السكرتير (يَرفع رأسه وكأنه تذكَّر شيئًا) هل أنت من أولئك الذين دعاهم السيد خالد إلى الحضور؟!

علي: نعم.. نحن المدعوون، ولقد وصل أمير وزوجته قبلي بساعات قليلة.

السكرتير: تشرَّفنا يا سيدي، أنا مصطفى مُحاسِب وسكرتير السيد خالد.

علي: ولنا الشرف يا بُني، أنا علي مساعد مدير شركة إنتاجية بالجزائر.

السكرتير: نعم.. هذا ما قاله لي السيد خالد.

علي: يبدو أنه كلمك عنا، أليس كذلك؟

السكرتير (يعود إلى عمله) نعم، ذكرَكم بإيجاز، وقال: إن السيد أمير يملك ويُدير شركة ضخمة ناجحة وأنت معاونه، أهنئك يا سيدي على نجاحكما.

علي: شكرًا يا بني، أهذا كل ما ذكره لك؟ ألم يقل لك سبب هاته الدعوة؟

السكرتير: في الحقيقة يا سيدي الفاضل لم يَطُل حديثنا عنكم أبدًا، فقد جاء الكلام عندما دخل الخادم ونبأ السيد خالد باقتراب وصولِكما، وهنا كأن السيد خالد تذكَّر فطفقَ يُوجز القول عنكم ويُخبرني عن النجاح الحقيقي كيف يكون، وأخذكم كنموذج ليُعاتبني ويُعايرني.

علي: فهمتُ... ولماذا يعاتبك؟

السكرتير (في صوت منخفض كأنه يحاول ألا يَسمع أحد غيرهما) لا أعلم لماذا يعاتبني ويَعذلني! هذا عسف وظلم، بل الحق أن يلوم نفسه لأني مُحاسب ولستُ مُسيِّر، دائمًا عندما يضيق الفضاء بالمسؤولين يرمون مقْتَهم على العمال الذين لا حول لهم ولا قوة على التغيير، وأَضِف إلى ذلك أنه يوم عطلة، أواجبٌ عليَّ أن أعمل طيلة أيام الأسبوع؟

علي: هل أفهم من كلامك أنه في ركود عمل.

السكرتير: نعم... تقلبات من السيئ إلى الأسوأ، منذ عامين والسيد خالد يُعاند شبح الخسارة، حتى اضطر إلى بيع أحد محلاته ظنًّا منه استدراك بعض ما فاته، ولكن تلك الأموال لم تَكفِ إلا لاستيراد بعض الألبسة وإعادة بَيعها في السوق.

علي: وكيف هو الوضْع الآن؟

السكرتير: يَملك محلَّ ألبسة واحد لا يُغني، ولكنه يضمن عيشة الأيام في هاته البلاد.

علي: أفهمك تمامًا يا بُني، يقولون: إن المرء الذي لا ينظر للأمور بعين الحكمة ينتهي به المسار إلى الندم والخيبة، وظني أن هاته الكلمات تقع على خالد.

السكرتير: أهذا ما تراه يا سيدي؟

علي: بل أكاد أجزم يا بني، لأني أدرى بالسيد خالد منك ومِن زوجته، فقد كان صاحبي وعشيري لزمن طويل.

السكرتير: ومثلك يَعلم.

علي: إن الترف وإسراف الأموال لا يؤديان بالإنسان إلى الهلاك فقط، بل حتى إلى ما هو أشد من ذلك، شقاء وسخط وجشع وحتى إلى غياب العقل، فإذا رحل العقل عن الإنسان أصبح يُضارع ذلك الحيوان الذي يَعبُد شهواته ويسير في سمت غرائزه ولذَّاته.

السكرتير: أفهمك جيدًا يا عماه، ولعل من كلامك هذا يتبين لي أنك رشيد تستنجد بعقلك لا بحيَلِك عندما تَغوص في مُعضِلة ما.

علي: أكيد، وهذا ما يستوجب علينا القيام به.

السكرتير: أريد أن أخبرك يا سيدي بأمر ولكني أخشى أن أكون ذلك الرجل العربيد الذي يَنطق كلام دون فهم.

علي: وما هو هذا الأمر؟

السكرتير (في اضطراب) لا أريد أن أسيء الظن في كلام السيد خالد فأنقله لك بغير معناه أو بغير قصده.

علي: لا أفهمك يا بني، ماذا تريد أن تقول؟ تكلَّم بدون ألغاز وإيحاءات غامِضة.

السكرتير (بصوت ضعيف): في حديثي مع السيد خالد قبل ساعات، فهمتُ أنه يريد حلاً عاجلاً لأزمته، ورأيت في كلامه شيئًا مِن... (يخرس عندما يسمع صراخ حديث قادم نحو الغرفة).

علي (في حيرة): تكلم يا بني.

(يدخل السيد خالد من الجهة اليُمنى برفقة أمير وهما يتكلمان بصوت عالٍ)

أمير (يضحك في الكلام) بالتأكيد يا عمو خالد.. باريس أجمل مِن مُشاهدتها في ذلك الصندوق الذي يحتكر المتعة في لقطات وجيزة.

خالد: بكل تأكيد، (يَلتفت نحو علي ثم يتقدم): أهلاً.. أهلاً.. ها أنت يا علي... مرحبًا بك (يرحِّب به بتسليمة وانحناء) انتظرناك طويلاً، ولكن المفاجئة أجمل، كيف حالك يا علي؟! أأنت بخير؟ سعيد جدًّا لرؤيتك.

علي: (بنفس الترحيب) شكرًا يا سي خالد... سعيد كذلك لرؤيتك، كيف حالك؟

خالد: على ما يُرام.

أمير: (متحمِّس) أنا حقًّا مسرور للقائكما يا سادة.

خالد: لقد مضى ردح زمني طويل عن لقائنا الأخير، منذ كان أمير صبيًّا، لم أكن أنتظر هذا اليوم إطلاقًا.

علي: صحيح.

خالد: لا نعرف ونحن في هذه الدنيا متى نلتقي أو متى نتفارق.

علي: معك الحق، فالدنيا لغْز يَعجز عن حله حتى من عُمِّر ألف سنة.

خالد: دائمًا تقول عبارتك الشهيرة يا علي، لن أنساها أبدًا.

علي (يضحك) بالتمام.

أمير: سأسعد كثيرا للجلوس معكما والتسامُر بحذائكما، فالأمر يبدو شيقًا قبل أن يحدث.

علي: أرجو هذا يا عزيزي أمير.

خالد: سنقضي وقتًا مهمًّا للغاية، ليس مرشَّحً للنسيان إطلاقًا.

أمير: أتمنى هذا حقًّا من أعماق قلبي؛ فأنا أشعر وكأن روح أبي تَسمو وترقُص عند لقائكما، وكأني أسمع صوته يرن في طبل أذني وراحة يده تداعب ظهر كفي.

علي: أعرف هذا يا أمير.

أمير: كأنني نصف سعيد ونصف حزين، فَينًا ترتسِم على وجهي ابتسامة، وفينًا آخر تنزل دمعة شجنة، أتمنى لو كان أبي حاضرًا يشهد واقعي وزواجي وعيشتي وكل ما صرتُ إليه، أتمنى لو أنه يعلم بأني أحبه وأشتاق إليه.

علي (في رفق): لا تزعج نفسك يا أمير، فأنا لا زلت بجانبك، أنت تعلم هذا.

خالد (يُحاول تغيير الحديث) خذ بما قاله لك السيد علي، لا تُزعج نفسك كثيرًا، سنكون بجانبك!

أمير: لا بد أن أشتاق للماضي يا عم خالد.

علي: حاول أن تتعايش مع واقعك هذا، من شركتك ونجاحك إلى تطويرها وترقيتها، اترك عنك الماضي الذي يردُّ إليك الترح والعبوس، واعزف على أوتار الحاضر من شبابك وحظِّك، فحالك هو حلم كل شابٍّ ورجُل.

السكرتير (في تدخُّل) أظن أني أوافق السيد أمير؛ أثر الماضي يظل أبدًا، رغم كل هاته الدنيا التي ذكرتها يا سيد خالد، إنه ضمير وإحساس الإنسان اللذان لا يسمو عليهما شيء.

خالد: (ينتبه لأول مرة منذ وصوله إلى السكرتير، فيلتفت إليه بسرعة، ويقول بصوت ملأه الغضب): ماذا؟ ألم تفرغ بعد من هاته الدفاتر؟ كم أنت أخرق أيها الشاب، انظر إلى الوقت الذي استغرقته أيها العبقري، كأنك تعمل على صاروخ أو طائرة، أضف إلى ذلك أنك تتدخل في ما لا يَخصُّك.

السكرتير: آسف.. قدمت رأيي فقط يا سيدي.

خالد: ارحل حالاً لا أريد مثلك في عملي، أنت مطرود (يَترك مصطفى الأوراق من يده ويمضي مُنصرفًا بهدوء دون رد) إنه سكرتير ومحاسب سخيف، لا يقوم بالصواب أبدًا.

(صمت)

علي: لا زالت عاطفتك تَسبِق عقلك يا سي خالد، ربما لو نظرت في أمره بتحفُّظ لغيرت رأيك.

خالد: بل ربما لو كنت أنت مكاني للطمتُه في وجهه جزاءً على تطاوله وتقصيره في أداء واجبه، فهو لا يعلم أنَّ فِعلَه هذا يعود سلبًا عليَّ لا عليه.

أمير: صحيح... يا عم علي؛ لا أظن أن العم خالد يَظلم أو يَحتقِر، ربما هو على حق؛ إذ لا يجب تأييد مثل هؤلاء الموظفين إذا أردنا المصلحة، فلا شك أن تسويف العمَّال يؤدي إلى تدمير الملاك والمستثمرين، وأنا أرى أنه يجب على الموظفين أن يكونوا ذوي شخصيات لهم وقفة وكلمة، أما هذا السكرتير فوالله لم ألحَظ وجوده منذ دخولي.

خالد: أحسنت الرأي يا أمير، أنت لم ولن تلحظ وجوده لأنه صامت كالقبر.

علي: يقولون: إن في الصمت حِكمة.

خالد (بلهجة أهدأ): ربما معك حق، لا أريد أن أناقضَك، لكني أجزم أن مصطفى سكرتيري لا الثرثرة ولا الصمت معه حكمة.

علي: لا عليك يا سي خالد، إنه شابٌّ صغير لا زال يتعلم.

أمير: كم عمره يا عم خالد؟

خالد (على مضض) يَصغرك بستة سنوات، فهو في الرابعة والعشرين.

أمير: إذًا مع عم علي الحق، هو شاب صغير، أنا في مثل سنِّه كنت لا زلت أدرس بالجامعة، ولم أفكِّر يومًا في الخروج إلى العمل.

خالد: إنه شاب مغترب، عندما تحصَّل على شهادة الليسانس ظنَّ أن الدنيا قد ابتسمت له، وليس هذا فقط، بل حالفه الحظ في نفس العام ليتغير إلى فرنسا، وعندها ظن أن الدنيا قد رحَّبت به في حضنها، وها أنا وظفته عندي كأنني مجنون.

أمير: (يبتسم) لا تقلق يا عم خالد، ربما يحتاج هذا الشاب إليك.. الآن أعذروني أظن أنني سألحق بليلى وأدعكما تتحدَّثان قليلاً على انفراد؛ لأنها شديدة الخجل من الغرباء.

خالد: كما تريد يا ولدي، أضمن لك أن خجل زوجتك سيتلاشى اليوم، فخديجة وماريا ابنتي متفهِّمتان لدرجة كبيرة (أمير ينصرف).

علي: هل ستَطرد ذلك الشاب فعلاً؟

خالد: يوجد أفضل منه العشرات، فلماذا عليَّ أن أوظِّف مثله؟

علي: ربما لأنه من أبناء وطنك، وقد قلت بنفسك أن الحظَّ حالفه، فهل تريد أن تنتشل هذا منه ليَشقى ويتمرَّغ على تراب هذا الوطن بحثًا عن عمل، ومَن يدري حال عيشه، ربما سيضيع بضياع وظيفته.

خالد: وما شأني أنه مِن أبناء وطني؟!

علي (في تهجم): هم يحتاجون إلينا أكثر من أي شخص آخر، أنت تعلم هذا جيدًا!

خالد: أراك تدافع عنه كأنه ابنك أو قريبك!

علي: بل أريد أن أُرجِعَك إلى عقلك لتتفكر حاله، والحقيقة أني أراك في هذا الشاب.

خالد: عفوًا؟

علي: أنت تُشبه هذا الشاب تمامًا يا خالد، ألم تكن في مثل سنِّه دائم التفتيش عن وظيفة حتى انتهى بك المطاف في معمل السي العربي؟

خالد: صحيح، ولكني كنتُ أبحث عن شراء أسهم، ليس وظيفة، كنتُ أملك رأس مال آنذاك، لا أُشبه هذا المخلوق أبدًا، هذا لا يملك شيئًا!

علي: بل كلنا نملك رأس مال؛ الإيمان والعزيمة، وليس الرأس مال فقط النقود الفانية.

خالد: لست مكلَّفًا لأن أرعى مثل هؤلاء الشباب؛ فهناك من يَهجُر بلاده ويزعم أنه يبحث عن رزق، وهناك من يفعل المستحيل في سبيل ضمان بقائه بفرنسا، وهناك من كان سلطان القوم في بلاده فتزفه رياح الطمع نحو هاته البلاد فيستحيل إلى عبد ذليل يَنتقل من بيت إلى بيت طالبًا الرزق، لست كفيلَ كل هؤلاء.. حالي يَكفيني.

علي (لنفسه): عجيب، كأنه نسي نفسه، لو كنتُ مكانه لأخرست ثغري عن نطق هاته الكلمات تحصنًا على شرفي.

خالد: منذ وصول ذلك السكرتير إلى مكتبي لم أشهد الفرح، إنه اللعنة.

علي: إن السفينة تسير إلى الغرق ما دام القبطان نائمًا.

خالد: ماذا تعني يا علي؟

علي: أعني أننا أحيانًا نصبُّ اللوم على كل ما هو حوالينا إلا على أنفسنا، ولو أدرك الإنسان حقيقة هذا لكانت كل أفعاله محكمة وكافية.

خالد: ربما أنت تقول هذا لأنك لم تذق طعم الخسارة منذ سنين (في هيأة المتهجِّم) أما أنا فقد صارعت الغربة منفردًا، ولم يخطر ببال أحد ما عانيته من عقبات وهموم، فلستُ راضٍ على الإعادة من الصفر، همِّي الوحيد هو الارتقاء إلى الأحسن لا غير ذلك.

علي: ومن يقول العكس!

**خالد**: (في سخط) لا يوجد شيء مجاني في هاته البلاد، لعل الشيء الوحيد المجاني هو الماء... مصاريف تعليم ابنتي ماريا وابني كارل أكبر من ميزانية تاجر بالجزائر، وأضف إلى ذلك النقل والمأكل والملبس والسياحة، إن اليورو حيَّة تتسلل إلى جيوبك دون أن تَشعُر، ولما تفطن من سباتك تجد جيوبك فارغة مقفرة كالبيداء... كيف أقف عند كل هذا؟ لم أعد أحتمل طلبات زوجتي السخيفة.. اشترِ هذه.. أريد ذلك.. وقفت طويلاً، لكني سئمت كل هذا.

علي: لا يَختلِف اثنان على أن بلاد الغرب صعبة المعيشة، ولكن على المرء أن يبحث بين خباياه على شُعلة أمل، فإذا كان يأكل رغيفين فعليه أن يستغني عن أحدهما.

خالد: (يُحرِّك رأسه رافضًا) أما أنا فلا، لا أرضى بهذا.

علي: كيف أنت إذًا؟

خالد: أنا..! أنا ناضلتُ طويلاً لأستقر بفرنسا، ولا أشكو أبدًا إذا صرت إلى ذلك النضال ثانيةً بمفردي، ولكن اليوم قد بات معي أولاد وزوجة لم أَحسبهم يوما أنهم أجدر للكفاح والنضال من أجل الرزق، فهم دأبوا النعيم والآلاء، وكَبروا في الثراء والحسْن، فكيف بعد كل هذا أنتشل ذلك الرغيف من أفواههم، بل سعادتهم في الرغيفين، فإذا ضاع أحدهما ضاعت سعادتهم.

علي: (كالمخاطب) لا والله ما أحسب أن معك الحق في هذا الكلام، لا يوجد في هذا الكون مَن ظل في النعيم أبدًا نحن البشر اليوم في شيء وبكرة في آخر، نلهث على الدنيا كما يلهث الصبي على الحلوى، ثم لا نَحصُل إلا على ما كتَبَ الله لنا، والحق أقول لك: إن النعيم ليس في الرغيفين بل في الرغيف الواحد؛ فالعبد إذا رضي بما قسم له الله عاش دنياه مكتفيًا وكافيًا لا ينظر إلى مَن فوقه، ولهذا يقولون: القناعة كنز لا يفنى.

خالد: (في شيء من الغضب) أنت تطعن بلا برهان أو حُجة؛ لأنك لا تفهم، أو أنت لا تريد أن تتفهَّم.

علي: وما هو الشيء الذي يجب أن أفهمه؟ ولتكن واضحًا.

خالد (بلهجة باردة): حسنًا لنكن كذلك، أنت بتَّ تعلم أنني أتخبط بين عباب الخسارة في تجارة الألبسة وأنا على يَقينٍ أن ذلك السكرتير الأحمق قد أطلعك على الظاهر والخافي قبل وصولنا إلى المكتب، ولا أُنكِر أنك حرَّضتَه وشجَّعته على ذلك.

علي: يبدو أنك لم تَتُب عن هاته الحيَل الماكرة.

خالد: (في عزة) دعْنا من الماضي يا سي علي، وخلي مستقيم حديثنا ثابت حول..

علي: لا تلعب دور الآمر أمامي، تكلم بلا سلطان لعلك تجدني أكثر تفهُّمًا.

خالد: حسنًا.. حسنًا.. لا خلاف اليوم بيننا، كفانا خلافًا ونزاعًا، لم تسافر آلاف الأميال لأجل خلاف، أنت لا تريد أن تفسد فرحة أمير، أليس كذلك؟

علي: أرجو هذا.

خالد: إذًا سأكمل حديثي؛ أنا لا أرى حلاً لهاته المُعضلة إلا وهو بين يديك، فأنت تعلم أن الشيب قد بلَغَ من نفسي ما شاء أن يبلغ حتى كبَّلني بأغلال العجز والعياء، فلم أبقَ شابًّا يافعًا في الثلاثينات لكي أركض أسعى عن حلول إعجازية، فأظن أن رجلاً مثلي جاوز عقده الخامس لا سبيل له غير أن ينظر إلى ما هو بين عينيه ويَصطاده بالخبرة والفراسة.

علي: (في حيرة) أي نوع هذا الحل الذي بين يدي، لا أرى لك شيئًا عندي!

خالد: بل أظنه ليس عند غيرك، ذكر لي أمير نشوة الربح التي تعيشونها في معمل "آربيكلوذ" بالجزائر، وأنا لا أحسدك يا سي علي، حاشى أن أفعل هذا، ولكن ألا ترى أن لي الحق في أن أشعر بهاتِه النشوة مثلكم وأتلذَّذ بالأرباح كحالكم.

علي: (بصوت حادٍّ) بأي حق لك هذا، وبأي حق تقول هذا الكلام، ليس لك شيء في معمل "آربيكلوذ"، والأرباح ليست من شأنك، قد كنت تملك أسهمًا قمت بتحويلها إلى أموال سائلة، وتنقَّلتَ بها إلى فرنسا، وكان هذا شر ما فعلت.

خالد: أما الآن فأنا في الشرِّ.

علي: أنت المسؤول عن حالك وعن كل ما صرت إليه، لو وجدتك فقيرًا معوزًا لكنتُ أنا من الأولين للمعاونة، ولكني أراك على أفضل حال، ولكنك ما إن شممتَ رائحة الخسارة تفوح ظننتَ أن سبيلك سيؤول إلى التشرد والفاقة، يا لسذاجة هذا التفكير.

خالد: أهكذا إذًا! كنتَ تتمنى أن تراني أتوسَّل باسطًا يدي أطلب السابلين لقمة أو دراهم حقيرة لأعيِّش مساكيني، وعندما لقيتني بهذا الحال خاب ظنُّك، أهذا ما كنت ترجوه؟

علي: (مستغرِب) معاذ الله أن أرجو مثل هذا لإنسان، ويلي منك يا خالد على هذا الكلام، بل أقول لك: إنك تهذي ليس إلا.

خالد: ربما معك حق.. أنا أهذي.. أتعلم لماذا أهذي؟ سأخبرك؛ لأني أخاف أن أستحيل إلى فقير حقير، وعندما يصير هذا يكون الأوان قد فات، فكل الذين هم بجانبي اليوم يتوارون عني غدًا، حتى زوجتي وأولادي أخشى أن يكونوا كذلك، فماريا ابنتي تميل إلى أمها أكثر من أي شخص آخر على الأرض، وكذلك كارل ولدي، فهل تحسب أنهم سيَقِفون معي بلا نعال؟ لا وألف لا.. بل سأكون وحدي كالشيطان.

علي: أنت تهذي حقًّا يا خالد، وتطعن في عائلتك بلا ذنب، كيف تكون مجرمًا في حق نفسك بهذا التفكير القاتل؟ إنه الوسواس بل شك!

خالد: لا تجعلني أبدو كالمغفَّل يا علي وتجعل من نفسك ذلك الحكيم الرشيد، لستَ خيرًا مني ولا أحسن، أنا أردت أن أخلق حياة جديدة لنفسي فنسفتُ عنها غبار تبعية تلك الوصية فارتحلت إلى هاته البلاد، أما أنت فقد حرصت طيلة سنوات على التعلُّق والتقرُّب إلى أمير كما يتقرَّب الوثني من صنمه.

علي: (بلهجة حادة) احذر؛ أنت تبالغ في تهجمك، قد صارت وقاحة منك.

خالد: (في برودة أعصاب) وإن تكن.

علي: وإن كانت فلن أزيد في منزلك دقيقة، سنُغادر في هاته اللحظة.

خالد: هوِّن عليك يا علي، أنت تعجل كثيرًا، ربما لن نتصالح أنا وأنت أبدًا؛ لأنك تحمل في ذهنك صورتي القديمة، والله أعلم أية صورة هذه، دعنا من الماضي وانظر في الحاضر، أمير قد صار رجلاً يَحتاجني كما يحتاجك.

علي: لا تتدخل، ليس لك شأن مع أمير، أمير في أحسن حال بدوني وبدونك، بالله عليك خالفتَ وصية المرحوم السي العربي بأمير وضربتها في عرض الحائط، ثم هاجرت إلى فرنسا كأن شيئًا لم يحدث، وعندما شعرت بأن الفضاء سيَضيق بك عاجلاً دعوتنا إلى هنا لتلعب دور اللطيف والصاحب القديم، انسَ هذا الكلام.

خالد: لا تكن غليظ الإدراك وصعب الفهم يا سي علي، أنا ساهمتُ في نجاح الشركة وعملتُ طيلة سنوات على إفشاء سمعتها ورفع قيمتها، وها أنت اليوم تُنكِر هذا الجميل وتذكر كل ما كان سيئًا، ليس عليك أن تصعِّب طلبي هكذا، فأنا أريد سهمًا في الشركة مقابل هذا الصنيع.

علي (في انتفاضة): سهمًا! ماذا تقول؟!

خالد: نعم، أريد شراكة معكما.

علي: (بضحكة استغراب) والآن تريد شراكة، لماذا يا هذا؟ مَن أنت؟ بأي حق تكون شريكًا!

خالد: بحق خالد سلمان، ناقشت هذا مع أمير فاغتبط للأمر وسعد به.

علي: حسنًا.. حسنًا.. لن أدخل في لجاجة معك، سأُسهِّل الأمر عليك، إذا كنتَ جديرًا بشراء أسهم فأهلاً وسهلاً، لعل في هذا خيرًا، وإن كنت تبغي غير ذلك، فالأحسن لنا أن نُغادر بيتك وألا تبحث عنا مرة أخرى، عندما ذكر لي أمير أنه قابل أحد أصدقاء السي العربي القدامى خطر في ذهني كل أسماء هؤلاء الأصدقاء غير اسم خالد سلمان، ولما فاجئني وقال لي: "إنك تريد شراكة أو استثمارًا" دُسْتُ على قلبي وخليت هذا الأمر على الله، عسى أن فيه خيرًا، ولم أُرِد أن أعترض على طلب أمير ما دمتُ حيًّا، ولكني أخشى أن الليلة سأقاوم طلبك هذا، ولا أنظر إلى رأي أمير مهما حصل؛ لأني أعلم أنه سعيد بكلامك لا بك، فكلامك وشاح يُغطِّي الحقيقة على أمير.

خالد: يبدو أنك مصرٌّ على تحطيم هاته الشراكة.

علي: (بنبرة ثقة) بلى؛ لأنها بغير حق، لو كنت من أهل الثقة لسررت بمناقشة الأمر بالرغم عني، ولكنك غدرتني سابقًا فلا عجب أنك ستغدرني حاضرًا.

خالد: أفهم أنك مستمر في غلاظة فهمك، كما تشاء، ولكني أُحذِّرك أن تتدخل بيني وبين أمير؛ لأن هذا ليس من شأنك، فقد جاءت الوصية أننا لنا الحق - الاثنين - في رعاية أمير.

علي: (يوجه سبابته نحو خالد) لو كنت تبغي حقًّا رعاية أمير لكان هذا عند وفاة السي العربي، أما الآن فوالله أحسبُك جاشعًا في الثروة، لا يهمك أمير ولا حياته، أما أنا فالله يشهد على ما ضحَّيته في سبيل الوفاء على طلب السي العربي، وأنت خالفت هذا، وظني أن من يُخالف الوصية ذنبه أكبر من المُجرِم القاتل.

خالد: لا تذكر مثل هاته المصطلحات وأنت تحت سقف بيتي.

علي: لو كنت أعلم مرادك لما وطأت بقدمي عندك، ولم أسمح لأمير المسكين أن يعرفك أبدًا.

خالد: أنت تحتكر أمير كأنه سلعة في منظورك - بلى هو كذلك - لأنك ترتشِف أملاكه حتى آخر قطرة، ولهذا تُعضده وتدافع عنه مخافة ضياع مصلحتك، فالآن جاء دوري أن أكون أمين الشاب أمير.

علي: يا لوقاحتك، بعد كل هاته السنين يدَّعي طلب محبة أمير، يا لك من سخيف، أتظن أنه حجر لا يُفرِّق بين الحق والباطل وبين الطيب والوقح، لن أقبل بحدوث هذا، ولن أخنَعَ لتخطيطك هذا حتى ولو رضي به أمير.

خالد (بلهجة غاضبة): احذر، لا شأن لك في هذا بيني وبين صاحب الشركة، إياك أن تتدخل، فأنت لا تحب أن تغتصِبَ سعادة أمير، أليس كذلك؟

علي (في غيظ): هل أنت تهدِّدني؟

خالد: ربما أنا أفعل هذا إن كنت عتبةً بيني وبين ضياء أملي الأخير في استرجاع هيبتي ونجاحي القديم، فحتمًا ستكون عاقبة أمير غير محمودة إطلاقًا.

علي: (باندفاع شديد) ما أبعد الرحمة والخير من قلبك أيها العبد المسكين، قد بات تهديدُك واضحًا، أعرف نيتك الخبيثة تجاه أمير، والله إن تجرَّأت على مسِّ شَعرة من أمير أو أن تجرح شعوره أو روحه الطاهرة، أقسم لك بأنني سأجعل بقية أيامك سجينًا في المنفى وعبرة لمن يَعتبر.

خالد (كأنه يسمع ولا يفهم): أنت تواصل عنادك (ببرود) تذكر، أنت لا تريد إفساد سعادة أمير، تذكر هذا جيدًا، وبعنادك هذا لن نَخطو خطوةً واحدةً نحو الصلح، بل نرجع واحدةً إلى الخلاف.

علي (في إصرار): لا صلح بيننا، لست مِن أهل الصلح والتسامح.

(صمت)

خالد (يتجه نحو علي في هدوء وبخطوات قريبة وقصيرة جدًّا): حسنًا.. حسنًا.. أظن أن رأيك قد بات كالصخر الصلد، ساكن لا تحرِّكه قوة، (يصفق تصفيقات ثقيلة ومتقطعة وفي صوت مماثل).

علي وما أدراك ما علي.. برافو.. (بصوت ماكر) لا مجال في الحديث معك، خُلقتَ عنيدًا وتموت عنيدًا، ليس من الحكمة أن أستمر هنا للجاجة والخصام، فلديَّ ضيوف مبجحون ينتظرونني في غرفة الاستقبال، بينهم شاب سأعقد معه شراكة العمر، يتجه نحو باب الخروج من الجهة اليُسرى ثم يتوقف عند العتبة (تذكَّر يا سي علي أنت لا تريد إفساد سعادة أمير، أليس كذلك؟ لا تتصرَّف بأي تصرف غبي... أكيد نعم) ينصرف وهو تاركًا في ذيله عليًّا بين المطرقة والسندان.

(صمت)

علي: (منتصب طويلاً بلا حراك في وسط الغرفة، ثم يسمع صوتًا واضحًا وبعيدًا، لا يعرف مصدره، كأنه صوت شبح)

الصوت: يا علي..

علي: (يرتعش) أنا.. نعم.. مَن أنت؟

الصوت: يا علي.. يا بُني..

علي: (يَلتفِت حواليه وهو مذهول) نعم، أنا علي.. يا ألله، خبرني من أنت هل أنا أتخيل؟ الصوت لا يردُّ (يظل علي يحدق إلى تلك الغرفة ويتوهَّم أن كل ما يحيط به يتحرك ويتكلم حتى يعاود ذلك الصوت مرة أخرى).

الصوت: (في لحن سلام) يا علي، يا ولدي، أنا إبراهيم ياسر.

علي (محولاً رأسه إلى كل زوايا السقف): إبراهيم ياسر..! مَن؟.. السي العربي.. يا إلهي.. هذا أنت يا عم العربي؟!

الصوت: (في هدوء رهيب) نعم أنا السي العربي، تكلم بهدوء، هدوء، لا أريد الضجة.

علي: عذرًا.. عذرًا.

الصوت: لا تترك أحدًا يَجرح مشاعر أمير أو يُصيبه بأذى، أنا أخشى عليه.. حبي له عظيم جدًّا.. إن سعادتي في سعادته، وترحي في ترَحِه، عندما يَحين الوقت ذَكِّره أنه سيد الرجال... لا تنسَ هذا، أنا أعرف متى ستقول له هذا.. (الصوت يتباعد حتى يَختفي عند آخر حرف) لا تقلق يا بُنيَّ علي، فأجرُكَ والله عظيم عند الرب.

علي (يريد أن يستوقف ذلك الصوت): مهلاً.. مهلاً.. عم العربي.

**(ستار)**

**الفصل الثالث**

غرفة الاستقبال، نفس مشهد المشهد الثاني للفصل الأول

(يجلس السيد خالد بجانب السيدة خديجة، وبنتهما ماريا تجلس بنصف جسدها على رأس الأريكة، ويقابلهم أمير جالس مع زوجته ليلى على الأريكة، شكْل مَجلِسِهم نصف دائرة حول تلك المائدة التي بها كرة ورود)

خديجة: هل تعلم يا خالد أن ليلى صارت من أعزِّ صديقاتي؟

خالد: لا شك عندي في هذا؛ فأنتنَّ النسوة تختلفن تمامًا عنا نحن الرجال، أنتن تحكمْن وتُقيِّمن أنفسكن بالعاطفة والمشاعر، ثم تجزمنَ مباشرة وفي وقت وجيز من هي الصديقة العزيزة ومن هي الشريرة المنبوذة، أما نحن نَنظُر إلى غيرنا الرجل بمائة عين، عين تنظر إلى رأيه، والأخرى إلى فهمه، والثالثة إلى بسالته، والرابعة إلى حسبه، وهكذا حتى تَنتهي العين المائة التي تقرر إن كان هذا صديقًا أم لا.

خديجة: حمدًا لله أنني لستُ رجلاً، لماذا تستوجبون كل هذا في إنسان عادي؟ عجيب... هذا مُتعِب.

خالد: نعم.. متعب كثيرًا، فنحن نتحمَّل كل التعب، حتى عند العلاقات مع الأصدقاء، وهذا ما يجعلنا متميِّزين.

ليلى: صحيح، أعترف بهذا.

خالد: شكرًا على اعترافك.

خديجة: يا عزيزتي ليلى (ثم تنظر إلى الجميع) ربما هم يعانون فيما بينهم لأنهم متغطرسين، يظنون أن المحادثات العاطفية عبارة عن خوَرٍ ولينة، فيتكلمون بالأنانية والعزَّة، وهكذا يفرُّون عن بعضهم بلا أدنى حبٍّ في قلوبهم، أما نحن يا عزيزتي ليلى أسعد الخَلق على الأرض، عندما تَلتقي المرأة بغيرها وإن كانت حتى لم ترها من قبل ولم تحدثها أبدًا، فهذا لا يمنعها بأن تتودد إليها وتسقيها من نهر الإخلاص والحبِّ؛ انظري مثلاً إلينا عندما التقينا قبل سويعات قليلة وتحدَّثنا من أغوار وجداننا بكل صدق وودٍّ، ألم يكن هذا شعورًا عظيمًا بغيرنا الإنسان؟!

ليلى (تحرِّك رأسها بعلامة الإيجاب) صدقتِ يا عزيزتي.

ماريا: معك الحق يا أمي، تهانينا للنساء.

ليلى: لكن كلنا يَحتاج إلى العقل والعاطفة، فلا بد أن يَجتمعا في نفس الإنسان ليتقبَّل غيره الإنسان، فالعقل في أمور والعاطفة في أمور.

خالد: ما هي هاتِه الأمور يا سيدتي؟

ليلى: الإنسان الدجال مثلاً لا بد أن نتعاطى معه بالعاطفة طمعًا في توبته والرجوع عن افتراءه، أما الإنسان الماكر فيجب علينا أن نسلط العقل لمحاربته، وإلا فحتمًا سنَنتهي بالندم والحسرة.

خالد (ينظر إلى أمير) يبدو أن زوجتك تملك حاسَّةً سادسة يا أمير.

أمير (في سرور): أعلم أنها ذكية وحذقة (ترتسم ابتسامة صادقة في وجه ليلى)، وكذلك تخجَل كثيرًا.

ليلى (تُطرق رأسها على كتف أمير في شيء من الخجل والحنان) شكرًا يا عزيزي.

خديجة: ما أجملكما الاثنين معًا! أسأل الله أن يُديم سعادتكما.

ماريا وليلى (كأنه صوت واحد) آمين.

ليلى: لنا جميعًا يا عزيزتي - إن شاء الله.

أمير (يتساءل): كيف تجدون العيش هنا بفرنسا يا عم خالد؟

خالد: فرنسا بلاد حية يا بني؛ الكل يحب العيش هنا، حتى الأمريكان لا يُمكن للمرء أن يصاب بالملل وهو على هذا الوطن، لا تخلوا أبدًا من السياحة والاقتصاد والتعليم والرياضة، ولهذا كل الناس يتمنون العيش فيها.

أمير: صحيح.

ماريا: وأنا في الحقيقة أحب فرنسا لمَعالمها العتيقة، والمتاحف، وكذلك لأدبائها وعلمائها، أنا مولعة بدراسة التاريخ والأدب، فحتمًا سأحب هاته البلاد التي أعتبرها أم التاريخ والأدب لعدة عصور غابرة وحاضِرة وقادمة.

أمير: سعيدٌ أن أسمع هذا الكلام من فتاة في سنِّك.

خديجة: أما أنا فلا أجدها مُملَّة كما لا أجدها ممتعة، فأظنها بلاد يمتزج فيها كل اثنين متناقضين؛ الشر والخير، الإرهاب والسلم، البُخل والعطاء، العسف والعدالة، الجحيم والجنة، الشيطان والملَك.

أمير: ألا تظنين يا سيدتي أن ما تذكرينه ينطبق على جميع دول العالم؟ أعني: أليست كل الدول ذات وسطية؟

خديجة: ليس كما تتصوَّر أيها الشاب، دعني أخبرك بشيء: إذا قلت لك مثلاً: صِفْ لي أيدلوجية الشعب الجزائري في كلمات واكتبها في قائمة، فأنا واثقة وعلى دراية تامة أن جميع كلمات هاته القائمة ستكون في سياق واحد لا تتحايَد عنه أبدًا؛ لأن عقلك يخزن صورة صادقة على الشعب الجزائري، وهي أنه شعب مسلم وكريم، فبمجرَّد أن تبدأ في إحصاء الصفات يذهب كل ما هو دنيء ومكروه، ويبقى كل ما هو مسلم وكريم، أما الفرنسي إذا طلبنا منه القيام بنفس العمل، فسأقول لك: إنك ستذهل عندما تجد عشرات الكلمات المتناقضة بالقائمة التي لا يجمعها أي سياق، وهذا يرجع إلى تعدُّد الجنسيات والثقافات والديانات داخل هذا الوطن، وبذلك تذهب عن ذهن الفرنسي صورة صافية عن مجتمعه.

أمير: تفسير مقنع يا سيدتي (في مزاح) عليكِ أن تقومي بتدريس القانون يومًا ما.

خالد: هي كذلك يا أمير، أستاذة قانون بمستوى ثانوي.

أمير: شرف لي يا سيدتي أن أقابل امرأة قانون (تبتسم).

ليلى: رائع يا سيدة خديجة أن أسمع هذا عنكِ، فلا ريب عندي أن القانون يَليق بك.

خديجة: شكرًا لكِ يا عزيزتي.

ليلى (في عتاب غرضه المزاح) ولماذا لم تقومي بإخباري عن هذا الأمر منذ قليل؟

خديجة: لأني لم أعد أستاذة قانون منذ زواجي يا عزيزتي، كنت أقطن أنا وعائلتي في إحدى أفضل المدن الفرنسية وهي كولمار، ودرستُ هناك في إحدى الثانويات حتى بلغت عقدي الثالث لأتزوج من خالد، ثم انتقلنا إلى باريس خنوعا لأعمال خالد المتركِّزة في هاته المدينة.

ليلى: ولماذا لم تُكمِلي التعليم هنا في باريس؟

خديجة (تومئ برأسها نحو خالد): اسألي بعلي.

خالد: لا أظن أن التعليم الثانوي في باريس شيئًا عظيمًا، بل هو مُكلِّف مقارنةً بالأجور التي يتقاضونها، ولو رأيتُ فيه خيرًا لكنت أول مناصر لها للتدريس، وأضِف إلى ذلك أن خديجة لم تعدْ شابَّة رشيقة كالسابق لتقوم بعملها (صمت).

ليلى: ولكنك تُحبِّين التعليم يا عزيزتي، أليس كذلك؟

خديجة (في حماس) بلى يا ليلى... أعشق التعليم، أظن أني ولدت للقيام به.

ليلى: ولكنك ستَقضين على رغبتك هذه إذا واصلت الركودَ واليأس، بل عليك المحاولة يومًا بعد يوم.

خديجة: لا عليك يا حبيبتي، ليس شرط علي أن أدرس، زوجي خالد معه الحق، ربما كبرت في السن، ليس عليَّ العودة في سنِّ الرابعة والأربعين.

ليلى: لكن هذا شغفك! أنت لم تُخالفي الناموس، ولستِ مجرمة إذا أردتِ أن تعودي للتعليم، هذا رمز الحرية يا حبيبتي، أنت امرأة ولك في هذا رأي وآراء، بل لست أيَّة امرأة؛ أنت امرأة قانون لا تَخفى عليك هذه الأمور.

ماريا: تمام يا أمي، ليلى معها الحق، أنا سأسعد كثيرًا إذا رأيتك تقومين بهذا.

خديجة (تبتسِم على مضض): لا عليكما؛ أنا لا زلت أتصل بأترابي وصديقاتي القدامى لنتحادث، أعني أنني أُطاوع هذا العلم ودائمة البحث والاطِّلاع.

خالد (يفتح ذراعيه): حلت المشكلة إذن.

ماريا (تَستغرِب وتنهَض تُخاطب الجمهور والباقي يُكملون حديثهم): أمي تقول: "إنها تعشق التدريس، بل إنها ولدت لأجله"، ولكنها ترفض العودة لتُرضي أبي، أو خضوعًا لطلبه، عجيب! كيف تستسلم المرأة أمام الرجل، وحتى امرأة حقوق لا تدافع عن حقِّها! أليس هذا مُحبِط ومُخزٍ؟! بل هو كذلك، كيف يكون الحال إذا لم يكن للمرأة حبل وثيق بالحقوق والثقافة والمعرفة التي تنجيها من الغرق في بحور مطامع الرجال؟ كيف يكون مصيرها؟ حتمًا سيؤول إلى خضوع المرأة أمام جبروت الرجل بكل خوَرٍ وجبْن، ما يَحدُث مؤسف حقًّا على المرأة، هذا نظام عالمي يَحكمه الرجال، الرجل يقرِّر والمرأة تخضع، الرجل يختار حرية المرأة ثم يرسم ويشرِّع عليها حدودًا كما يَشتهي، أليس من حق المرأة أن تكون جزءًا من هذا النظام؛ تقرِّر وتخطِّط، تراقب وتسيِّر، توجِّه وتَحكُم؟!

(تحوِّل كلامها إلى أبيها) ما هو رأيك يا أبي في عودة أمي إلى التدريس هنا بباريس؟

خديجة (في لهجة عتاب) ماريا، اسكتي... انتهى حديثنا عن هذا الأمر، وإذا أغلظت رأسك سأَطلُب منك الصعود إلى غرفتك... مفهوم؟

(ماريا تلم كِلتا يديها على فمِها وتَخرس مباشرة).

خالد (يُخرج حداقة وغليونًا من جيبه ثم يُشعله ببطء): حسنًا يا سيدة ليلى، يبدو أنك ذات مستوى تعليمي جيد، وذات نسبٍ وحسب مرموق ليتزوَّجك هذا الأمير.

ليلى (في خجل شديد جعل كلامها يتقطع) في الحقيقة يا عم خالد لا أظنُّ أنني كما تتصور، لستُ كذلك!

أمير (يحدِّق في عيني ليلى) بل أنت كذلك يا عزيزتي... أنت أغلى امرأة عندي.

خالد: لا شك عندي أنها كذلك؛ فرجل مثلك لا تليق به إلا امرأة تُضارع حاله وتُماثل حسبَه.

أمير: لا أظنُّ أن هذا واجب يا عم خالد، ليس للحبِّ عين تَنظُر لهاته الأشياء في نفس المحبوب، وأنا أحب خليلتي ليلى حبًّا مُطلَقًا، لم أرَ يومًا عيبًا في نسَبِها وحسَبِها ما دام في قلبي شيء مُخلِص نحوها، هل تُوافقني الرأي يا عم خالد؟ أعلم أنك تفقَه ما أقوله.

خالد: أفهم كلامك يا بني، ولكني لا أفهم قصدك.

خديجة (في تدخل): لقد أخبرتني السيدة ليلى عن هذا الأمر منذ قليل، واختصرت لي حياتها في كلمات وجيزة ومعبِّرة، فما أحسبها إلا أطهر وأشرف النساء، حتى ولو لم تدرس طويلاً ولم تدخل المتوسِّطة يومًا، فهي مثقفة وحاذقة وواسعة الاطلاع على كل القضايا، وإن كانت ليست ذات حسب مِن قبْل فوالله ما أحسبها عند هاته اللحظة إلا أنها ارتفعَت إلى أعلى المقامات لدى الناس بأخلاقها وفضيلتها.

ليلى (تمسك بيد خديجة): شكرًا على كلامك هذا يا عزيزة قلبي، (تنظر إلى زوجها وفي صوت طافح بالحب): الفضل يعود إلى الله ثم إليك يا حبيبي؛ أنت من جعل مني سيدة في المجتمع... أحبك.

أمير (يبتسم): بل تزوجتك وأنت أشرف سيدات المجتمع يا حبيبتي... لا تذكري هذا الكلام ثانية، أنا لم أغيِّرْك بل أنت من غيَّرَت نفسها.

ماريا (تنهض ثانية وتُخاطب الجمهور) يا إلهي، اعتقادي كان خاطئًا وطاعنًا في حق الرجال والنساء لما قلتُ: إن المرأة البعيدة عن الثقافة والمعرفة ضحية سهلة للغرق في بحور مطامع الرجال، أظن أنني مخطئة تمامًا، وأعظم دليل يُبطل اعتقادي هو حال السيدة ليلى التي حسب ما فهمتُ أنها عكس أمي تمامًا؛ أمي أكملت دراستها إلى أبعد مدى والسيدة ليلى لا، لكن يَظهر تباينهما في الشخصية القوية والجبانة، وأظن أن جُملة السيد أمير عن زوجته تلخِّص مرادي حين قال: أنا لم أغيرك بل أنت من غيَّرتْ نفسَها، أفهم من هذا أن المرأة أسيرة أفعالها الإرادية، فكما شاءت أن تطمح لأن تكون حتمًا ستكون كما أرادت، إذًا المرأة تختار وتُقرِّر، وتوجه وتحكم، لا بد أن القرار بين يدَي أمي - إن شاءت تُكمل وإن شاءت فلا - عليها أن تكون مثل السيدة ليلى (تلتفت إلى أمها وبنبرة ثقة): أمي، حتمًا لك رأيٌ بيِّن في خصوص حلمك، هل تختارين التوقُّف أو مواصلة التدريس؟

خديجة (في صراخ وعتاب): أنت شقية أيتها البنت، قلت لك ألا تَخوضي في هذا الأمر ثانيةً، ولكنك لا تهتمي بكلامي، اصعدي إلى غرفتك حالاً...

(تمضي ماريا وهي مطأطئة رأسها ثم يدخل الخادم بعدها من الباب الذي يؤدي إلى البهو)

الخادم: هل أقوم بتحضير الغداء يا سيدي؟

خالد (ينظر إلى الجميع): هل تودون هذا؟

أمير: لا داعي لتحضير الغداء، أظنُّ أن القهوة تكفي.

خديجة: إن ليلى تريد طبق فيليه مِن السمك، أليس كذلك يا عزيزتي؟

ليلى: لا... لا.. شكرًا، أجِّلي هذا إلى العَشاء، ربما كُتب ذلك.

خالد: حسنًا، يا خادم سنَكتفي بالقهوة والشاي.

الخادم: لك هذا يا سيدي، هناك أمر آخر: إن السيد علي بمفرده في المكتب، هل أدعوه يا سيدي.

خالد: أكيد، ادعه لينضمَّ إلى مجلسنا، فلماذا عليه الخلوة بنفسه ونحن جميعًا هنا؟ (يحرك الخادم رأسه موافقًا ثم يذهب).

أمير: كيف كان حديثكما عن العمل يا عم خالد بعد انصرافي.

خالد (يُخمد ذلك الغليون): لا بأس؛ أظنه مرتاحًا من هاته الشراكة، ويَجدها حلاًّ رائعًا للمدى البعيد.

(يدخل علي ولا أحد يشعر به)

أمير (في فرح): أحقًّا يا عم خالد؟!

علي (بنبرة حادة): لا يا عزيزي أمير لم، نُناقش الأمر بعْد، ولا أجد هاته الشراكة جديرةً بالنقاش.

خالد: يبدو أنك تعشَق الدخُّلات الدرامية المفاجئة كما في الأفلام يا السي علي.

أمير (في حيرة): عم علي، ماذا جعلك تقول هذا الكلام بهاته الطريقة الغريبة؟!

علي: لا تسألني يا أمير.

أمير (ينتفض ويتجه إلى مكان علي وهو مبهور): هل أنت جاد بما تقوله يا عم علي؟ قد تغير وجهك إلى شاحِب، هل حدث شيء؟

علي: قلت لك: لا تسألني كثيرًا يا عزيزي، سنُكمل الليلة هنا بدون نقاش العمل والشراكة.

**(يلتحق خالد إلى مكان علي وأمير فتنقسِم الخشبة إلى جهتَين؛ جهة يُمنى تتمثل في السيدة خديجة والسيدة ليلى لا زالتا جالستين يتهامَسان حينًا ويَصمُتان حينًا آخر، وجهة ثانية تتمثل في الرجال الثلاثة)**

خالد: حسنًا حسنًا... يبدو أن عمك علي - يا أمير - من الناس الذين يهابون التغيير والتطوير خوفًا على مصالِحِهم أن تزول.

علي (يوجه سبابته في وجه خالد): أرجوك يا سيد خالد احفظ صفاء هاته الجلسة ودعْنا نتحادَث ونتسامَر في هدوء ثم نمضي إلى بلادنا غدًا بلا أدنى بغْض.

أمير (يقف بينهما حائرًا): لماذا كل هذا الكلام المفاجئ يا عم خالد؟ انظروا معي، هل حصل شيء يا عم علي؟ كيف يُمكن أن تستحيل هاته الصحبة إلى نفور بعدما كانت قبل قليل جيدة.

علي (يواصل اتهامه): لم تكن أبدًا كذلك يا ولدي، ظننتُ أن السيد خالد بعد شَيبه هذا قد تاب وثاب عن أفعاله وأفكاره الماكرة، لكنه والله ما تغيَّر.

أمير: أنت تُقلقني يا عم علي بكلامك هذا، لا أفهم عما تتحدَّث - عن السيد خالد أم شخص آخر - لأني أجهل سبب تغيُّر حالك؟! (يرفع ذراعيه معبرًا عن حيرته وتعجبه).

علي (في قليل من الشفقة): بل أنت جاهل لكل شيء يا عزيزي.

خالد (في اندفاع) كفاك تجهمًا وعنجهية يا علي، يا لك مِن مُشوِّش، كنا نتحادث مغتبطين مسرورين بلقائنا ثم تأتي لتشوش علينا وتُزعجنا بأحاديث لا أرى لها صحة.

أمير: يا عمو علي هذا صحيح، هل أنت واثق مما كنت تقول؟ خبرني أرجوك ما الذي غيَّر رأيك هكذا؟ ألم نكن متفقين قبل وصولنا على النظر في هاته الشراكة بعين الاعتبار إذا كان السيد خالد جادًّا وعازمًا؟! وأظنُّ أنني أشهد على جدية عم خالد للاستِثمار معَنا، ربما أنت مُخطئ يا عم علي في كلامك، (علي لا يردُّ ويَكتفي بالاستِغراق في التفكير).

خالد (في برودة): أرأيتَ يا أمير يبدو أنه كان يَهذي ليس إلا.

علي: أنا أهذي! (يَنتصب أمام أمير): لا أريد أن أصبر دقيقة وأنا في هذا المنزل، لقد طفح صبري، لم أعد أحتمل النظر إليه أو الإصغاء له، هلمَّ بنا للرجوع إلى الوطن يا بني، (يَلتفِت إلى ليلى المذهولة هي وخديجة) ابنتي ليلى، سنُغادر هذا المكان.

أمير (يَصرُخ): لن نُغادر أي مكان حتى تشرَح لي ماذا حدث يا عم علي.

(صمت وجيز)

علي (في تفهم): حسنًا يا أمير، هل تثق في كلامي؟

أمير: طبعًا.

علي: إذًا الحق أقول لك يا أمير: إنك جاهل بخفايا هاته الدعوة وما يتستَّر مِن خلفِها، إن السيد خالد لا يحبك ولا يَكترِث لأجلك، بل هو يُريد أن يبني بك جسرًا ليَعبر إلى مطامعه الساذجة (أمير يقف ذاهلا ولا يرد).

خالد (في غضبٍ شديد): اللعنة عليك يا رجل، كيف تطعن في حقِّي هكذا؟

خديجة (تُهروِل إلى السيد علي وبنبرة توسل): أرجوك يا سيدي أن تُثبت كلامك، لا أريد شجارًا بينَنا... أرجوك (يَنتهرها خالد بقوة عنيفة من ذراعها ويُبقيها أمامه).

ليلى: السيدة خديجة على حقٍّ لا نُريد شجارًا، تصالَحا قبل فوات الأوان، أرجوكما.

علي (يُحوِّل نظراته بين الجميع عدا إلى خالد): أنتم لا تفهمون، لم نتشاجَر اليوم، بل نحن على خلاف منذ سنين، وظننتُ أن هذا انتهى برحيل السيد خالد هنا إلى فرنسا، ولكني شعرت برعشة غير مطمئنة عندما دعانا اليوم وطفقَ يلوث الماضي بكل وقاحة وجَسارة، وأنت يا أمير: هل تظن أنه يريد شراكةً صادقة؟ لا وألف لا، إنه يريد ذلك ليَنتقم مني ومن السي العربي، فهو يستطير غيرةً وحسدًا على ما أصبحنا عليه، (ينظر إلى خديجة برحمة) سامحيني يا سيدتي على جهري هذا، والله ما كنت لأقوله أمامك لولا خوفي على أمير وليلى، السيد خالد هدَّدني مقابل قبول هاته الشراكة التي لا حقَّ له فيها، (في هدوء): لا أستطيع صبرًا على هذا.. لا أستطيع!

(الكل في صدمة؛ خديجة تضع راحة يدها على فمها علامة على الدهشة)

أمير: لا أصدِّق هذا، لو قال هذا الكلام غيرك يا عم علي لصفعته... عم خالد، تكلم، هل هاته هي نيتك الوحيدة؟

(خالد لم ينبس بكلمة)

ليلى: نعم، ربما هي الحقيقة؛ أنا أرى ذلك في عينيه.

خالد (يتهجم): اخرسي أيتها الحثالة، لا حقَّ لك في التكلُّم، أنت امرأة بلا ثمن، لا حسب ولا ثقافة.

أمير (ينفجر في وجه خالد كبركان من الغيظ): اسحب كلامك أيها الشيخ وإلا أقسم أنني سأقتلك... أنت تتكلم عن زوجتي أيها الوقح؟!!

(علي يجذب أميرًا إلى الوراء مخافة مِن أن يشتدَّ الخصام، خديجة وليلى تبكيان تحسُّرًا على ما صار إليه الأمر).

خالد (يخاطب أميرًا): وأنت أيها اللقيط، هل تظن نفسك شريفًا ذا نسب وأصل؟

علي: قبَّح الله وجهكَ... ألا تعرف الرحمة.

أمير: أنا لقيط؟! وكَّلت عليك ربي أيها العبد، كيف تجرؤ على هذا الكلام؟

خديجة: يا إلهي، خالد ماذا حدث لك؟

خالد: إنها الحقيقة التي يَجهلها هذا الشاب، هو لقيط بلا نسبٍ ولا أصل، أَخفى عليه عليٌّ الأمرَ ليمتصَّ جميع مُمتلكاته التي تعود إليه بعد وفاة السي العربي.

علي: خزْيُ عليك أيها الحقير (يريد أن يَلكمه على وجهه لكنه تراجع).

أمير (في صراخ خالط شيئًا من الحيرة): ماذا يقول يا عم علي؟ خبِّرني... أكاد أجنُّ... ما قصته (علي مُطرِقٌ رأسه بلا كلام).

ليلى: يا عزيزي، لم يُخفِ عليك عم علي أي أمر، بل كل ما يريده هذا الرجل هو التنميم والكراهية، ألم تره كيف لم يرحم ولا أحد بيننا؟ (تنظر إلى خديجة بنظرات سلام عليها).

خالد (يحاول أن يُغرق أمير): هل تظن أنني أهذي يا أمير؟ أنت لست ولد السي العربي ولا ابن زوجته نعيمة، الحقيقة هي أن نعيمة كانت لا تنجب أطفالاً فقام الزوجان برعايتك وتحمل تكاليفك.

أمير (في صوت حزين ملأه اليأس): عم علي، أرجوك لا تقل لي: إن هذا صحيح، أرجوك أخبرني أنه يفتري، (علي يومئ برأسه إشارة إيجاب صحة هذا الكلام): لا.. لا.. هذا صحيح.

علي (في عبوس وإطراق): هذا هو الواقع يا عزيزي، أنا لم أخفِ عليك الأمر من أجل ما ذكره هذا اللئيم، لكنني ظللتُ أُخفي عنك الأمر إلى أجلٍ لا أعرف وقته، سامِحْني يا أمير ولدي، لم أكن أريدك أن تكتشف الأمر بهاته الطريقة وعلى لسان هذا البغيض (ينصرف خالد من القاعة بغضب ونفور ثم يصرخ عليٌّ): حذرتك أن لا تجرَح نفس أمير، لكنك فعلتَ، ستدفع ثمن فعلك هذا.

خديجة: يا إلهي، ماذا يحدث؟ هل أنت بخير أيها الشاب؟

(صمت رهيب والكل ينظر إلى أمير وهو يتقدم إلى وسط الغرفة بترنُّح كأنه ثمل نسي جمع خطواته عند المشي، ثم انتصب وظل يُحوِّل نظراته على الغرفة طويلاً قبل أن يشعر بدوار شديد، مسك رأسه بكِلتا يديه كأنه خشيَ أن ينفصل منه، ثم أُغمي عليه ليسقط جاثيًا على الأرض، فهرول نحوه الجميع في ارتباك)

**(يُسدَل ستار سريع ثم يرفع على نفس المشهد لكنه في جو هادئ جدًّا لا يُسمَع فيه أيَّة ضجَّة، يُرى أمير مستلقيًا على الأريكة ولا زالت أثار الصدمة باديةً على وجهه البريء، وزوجته ليلى وعلي بجانبه يواسيانه بكل رفق وانتباه، ثم تدخل ماريا في صمت تحمل كوبًا من الماء)**

ماريا: اشرب هذا الماء يا سيدي ربما تَنتعش قليلاً (تناول الكأس لعلي): أنا مصدومة حقًّا من الذي حدث صدقوني، عندما قصَّت عليَّ أمي الأمر شعرت بأسف جزيل، أطلب منكم السماح نيابة عن والدي، أرجوكما أن تغفرا لأبي (لا يرد عليها أحد)، أمي لم تدرِ بأي وجه تُقابلكما بعد هذا، سامِحوها أرجوكم... إنها تطلب مني ذلك.

ليلى (تبتسم لتُطمئن ماريا): بلِّغيها سلامي يا عزيزتي ماريا، لا عليك أيتها الجميلة، أنا أُحبكما (ماريا تخطف عبرتها وتنصرف راكضة).

أمير (يتحرك ببطء في مكانه): يا إلهي، أشعر كأن دمي كله يَسري إلى الأعلى نحو رأسي الذي يكاد أن ينفجر (يشير إلى الماء فتناوله ليلى إياه)

علي: توقَّف يا أمير لا تشرب ذلك الماء!

أمير: لماذا؟

علي: ربما كيد مِن خالد.

ليلى: لا بأس، لقد جاءت به ماريا، لا تجعلها يا عم علي ضحية ذلك اللئيم؛ فهي إنسانية مثل أمها، أنا واثقة من هذا.

علي: حسنًا معكِ الحق.

أمير (يشرب الماء في جرعة واحدة ثم ينهض): لا أصدق أنني في الحقيقة والواقع، بل أكاد أجزم أن كل هذا أضغاث أحلام لا بد أن تَنتهي، أبي ليس أبي وأمي ليست أمي؟! آه، إنه الخيال.

ليلى (تحمل يده في حنان): هون عليك يا عزيزي، الأمر حقيقة صافية، لقد سرد لي عم علي قبل استيقاظك كل القصة بالتفصيل، إنها الحقيقة يا أمير، واعلم أني لا أريد أن أراك على هذا الحال.

علي: تعال يا أمير بجانبي لنتحدَّث في أكثر الأمور أهميةً في حياتك (الكل جالس): إن الله يا بني جعل في عباده شيئين عظيمين يرتفعان به إلى أحسن خَلقِ الله كلهم، وهما العقل وقلب الإنسان، ومن هاته المعجزة نجد أن الله قد هيأنا للخوض في هاته الدنيا الطافحة بالشقاء كما هي طافحة بالسرور، وكل واحد منا خاضع لاختيار الله، وما أحسبك يا أمير إلا أنك تعلم هذا وتُدركه، فأنت شديد دعاء الناس إلى السعادة، وهل يعجَز مثلك أن يجد السعادة لنفسه؟ لا والله، دعني أتلو عليك مشيئة الله عند حداثتك كيف كانت:

كان السيد إبراهيم ياسر المعروف بسي العربي وزوجته نعيمة لا ينجبان أطفالاً، وكان السي العربي أسخى الناس وأطيبهم سمعة، ولم يفكِّر يومًا أن يُذمِّم زوجته لأنها لا تنجب، بل سلَّم للقدر وظل وفيًّا لها حتى الممات، مثلك تمامًا يا رجل.

ليلى: وكان العم علي وخالد من أعزِّ الأصدقاء المقربين إليه، وكانا يملكان أسهمًا في شركة "آربيكلوذ".

علي: وعندما عرف خالد أن السي العربي لا يُنجب أولادًا استغل هذا الموقف المرهَف ليُظهر جشعَه أول مرة، فبدأ يَحتك إليه بنفاق خبيث طمعًا في رَبحِ الثقة العمياء للسي العربي، ولكن هذا لم يَدُم أبدًا؛ لأن السي العربي عندما بلغ سن الأربعين رأى هو وزوجته أن يشاركا بحبِّهما الصادق طفلاً يستحق كل الحنان والود، فقرَّرا أن يقوما برعاية وتكفُّل أحد الأطفال الذين هم بمؤسسات ومصالح الحقوق المسؤولة، فشاء الله أن يكون هذا الطفل هو أمير.

أمير: أنا! أنا كنتُ في مصلحة رعاية؟! من هي والدتي ومن هو أبي؟!

علي: لا نعرف والدَيك يا عزيزي.

أمير (ينتحب): يا إلهي، يا ربِّ ارحمني، ماذا فعلتُ؟ ماذا صنعت حتى أكون هكذا؟ إذًا أنا لقيط حقًّا، أنا ابن حرام!

ليلى (تَبكي لبكائه): أنت لست كذلك يا عزيزي، أنت حياتي يا أمير، لا تفعل هذا أرجوك، أنا أتوسَّل إليك.

علي: لا يا أمير لستَ كذلك، لقد كانت السيدة نعيمة أمك التي لم تلدْك، والسي العربي أبوك الذي لم تكن من صلبه، ولكن لو يعلم العالم كم أحباك لسلَّموا بأن هؤلاء هم أهلك أو أكثر؛ لقد سقَوك بكأس الحنان والحب ما يَسقيه الوالد لولده والأم لابنها، فلم تغفل عن عين السي العربي ساعة إلا وكاد أن يموت من الوحشة ومن الخوف عليك، كنتَ أنت الفرحة العظمى في حياتهما يا أمير، (يَذرف عبرات بالرغم عنه) لا زلت أذكر ذلك اليوم الذي ناديتَهم بأبي وأمي؛ حيث قام السي العربي يُحدِّث كل من يراه سابلاً في الطريق عن هذا الأمر من شدَّة الفرح (صمت).

ليلى: ثم شاء الله أن تتوفى السيدة نعيمة - رحمها الله - لما بلغت السن الثامنة والأربعين بمرض الصمام التاجي الذي يُعرقِل سيرورة الدورة الدموية.

عليٌّ (في تنهد متقطِّع تمامًا): لقد ماتت بالطريقة التي كانت تتمناها دائما؛ حيث اجتمع حولها رجلُها الوفي وابنها الذي لم تلدْه.

ثابر عم العربي وصارع تأثُّره الشديد لموت زوجته لمدة عامين أو يزيد بقليل، ثم استسلم للموت لما بلغ سنَّ الستين فتوفي ولحقها إلى الجنة إن شاء ربي، قبل موته كأنه رأى فلم حياة أمير وإلى أين ستصير، فلم يكن ليُغادر ويترك خليله الوحيد الذي تبقَّى له في الدنيا يواجه هذا العالم وحده وهو في عمْرِ الخامسة عشر (ينهض من جلوسه)، فقام السي العربي بكتابة وصية وأمَرَ فيها أن تعود ثلُث أملاكه لك يا أمير، كما أوصى أني أرعاك أنا وخالد بعد وفاته، ولكن السيد خالد عصى الوصية وهاجر إلى فرنسا بتحويله تلك الأسهم إلى سيولة، واشتدَّ حنَقُه علينا جميعًا؛ لأنه لم يرضَ بما قسمه الله لك، أي: طار حسدًا ومقتًا على ثلث الأملاك الخاصة بك، ومن هناك وهو يحمل الغيظ ولم تَخمد نار طمعه وجشعه حتى فعل ما شاء الله أن يفعل، إن لم يغفر له الله لا أعلم مصيره من هاته الأوزار.

أمير (في صوت هادئ وحزين): لماذا يا عم علي لم تخبرني عن هذا من قبل...؟ (يصمُت طويلاً ثم يعود إلى الكلام) لا أعلم ما عليَّ القيام به الآن؟! أشعر كأنني غريب عن كل شيء بالرغم كل ما ذكرته إلي يا عم علي!

علي: أشفِق يا عزيزي على السي العربي والسيدة نعيمة اللذين أحبَّاك بكل رحمة ومودة، أنت تمثل سعادتهما وحزنهما فلا تسلبهما حق هذا الشعور حتى وهم في القبر.

أمير (يبتسم ثم يختفي ذلك الوجوم على وجهه): صحيح معك حق يا عمو.. هل تعلم لماذا؟ أنا أفكر في أولئك الأطفال المساكين الذين كانوا معي في المصلحة، هل يا ترى أنهم انتهوا مثلي وصاروا كحالي؟ هل يمكن مثلاً أن أسرةً تكفَّلت بهم مثل أبي العربي وأمي نعيمة؟ هل ربما وجدوا مَن أحبهم كما أحبَّاني أنا؟ أظن أن الله أحبني لأنه لم يَجعلْني متشرِّدًا أو معوِزًا كما يحدث للبعض، يا ربي، أنا سعيد لأن لدي من أحبني وقام بتربيتي ورعايتي، شكرًا يا إلهي (يجثو على ركبتيه باكيًا يشكر الله).

ليلى (تهرول نحو زوجها وتَحتضِنه): كم أنت رشيد يا عزيزي، أنا أحبك وأشكر الله أنك بعلي (يَحتضِنُها بشدَّة).

علي (في فرح): هل تعلم يا أمير ما هي آخر كلمات ذكَرَها عم العربي قبل وفاته؟ لقد قال - رحمه الله -: "ذكِّروا أمير بأنه سيد الرجال"، ها أنا الآن أذكِّرك يا سيد الرجال.

(تمت)